الألفاظُ المستعملة في التَّصويتِ للحيوان
دراسة لغويّة دلاليّة

خالد بن محمد عواد المساعفة

يُلحظُ من استقراءِ ما في المؤلفاتِ اللُّغويةِ القديمةِ استعمالُ نمطٍ من الألفاظِ اللُّغويّة الكثيرة في التَّصويت للحيوان الأعجم غيرِ الناطقِ، فبقول العرب: جَهْ تمكّنوا من تسكينِ الأسد والذئب، مثلما استطاعوا زجرَ الإبلِ وغيرها من ضروب الحيوان الذي ألفوه في بيئتهم بوساطة التّصويت: جاهْ أو جاهِ أو هَأْ إذا ما أرادوا دعاءَها إلى الماء أو العلفِ.

ومجموعُ هذه التصويتات المرويّة في مواضعَ متفرِّقةٍ في معجماتِ اللغة ومطولاتها المختلفة يؤلِّفُ حقلاً دلاليّاً فيه كثيرٌ من المشتركِ اللغويِّ الّذي يفتقرُ إلى الدَّرسِ والتأصيل ورجعِ النّظر، بعد أنْ أُغْفِلَ هذا الدرسُ في الفكر اللغويِّ القديم والحديث على حدٍّ سواء.

وقد تناولَ هذا البحثُ درسَها وتأصيلَها وفاقاً لمباحثَ ثلاثةٍ ومقدِّمةٍ، يدورُ المبحثُ الأولُ في محور نشأةِ هذه التصويتاتِ ووضْعِها اللُّغويِّ، ويقومُ المبحثُ الثّاني على درسِ المسائل الصوتية في بنية التصويتات، وفي المبحث الثالث تناوُلٌ للأفعالِ التي صارت اللغةُ إلى اشتقاقِها من التصويتات. وأمّا المقدمةُ ففيها ما يضعُ القارئَ في الإطار النظريِّ لموضوع البحث ويمهِّدُ لدرسه.

وقد أفادَ البحثُ من معطياتِ الدّرس اللّغويِّ القديم والحديثِ في درسِ هذا الموضوعِ والوصولِ إلى نتائج مختلفةٍ فيه.

مقدِّمة:

من جملة ما روتْه مؤلفاتُ اللُّغة القديمة الألفاظُ الّتي كان يستعملُها العربُ في التصويت للحيوان زجراً له أو دعاءً أو تسكيناً، ومجموع هذه الألفاظ الّتي نسمّيها (تصويتاتٍ) يُؤلِّف حقلاً دلاليّاً واحداً بالنظر إلى المعنى المشترك فيها وهو التصويتُ بها لهذا الحيوان، وبالنظرِ إلى الموجب لنشأتِها، وما نجدُهُ من الخصائص اللغويّة المشتركة في مستوياتِ هذا الحقل الدلاليّ: الصوتية والصرفية والنحويّة

(التركيبيّة). وفي درسِ هذه المستويات ما يؤكّد سمات التطوُّرِ اللُّغويِّ المشترك لألفاظ التصويتات.

إنَّ طبيعةَ هذا البحث قد اقتضتْ جمعَ ما تفرَّق من ألفاظ التصويتات ابتداءً، لأنّها لم تُجمع في مصدر واحدٍ من مصادر اللغة ومؤلفاتها المختلفة؛ لهذا كان متكأ البحثِ في الجمعِ يقومُ على استقراءِ ما في معجمات اللُّغة على اختلاف أنواعها ومناهجها، وفي مقدمةِ ذلك معجمُ العين للخليل، وجمهرةُ اللغة لابن دُريد، ومقاييس اللغة لابن فارس، ولسان العرب لابن منظور، وتاج العروس للزبيديِّ، زيادةً على كتاب (المخصص) لابن سيده الأندلسيِّ الذي يُعدُّ معجماً من معجمات المعاني.

وقد عُني قطربٌ بكثيرٍ من ألفاظ التّصويتَ في كتابه (الفرق في اللغة) لذا كان كتابُه مصدراً لا غنى عنه في دراسة هذه الألفاظِ، بيد أنَّ الإتكاءَ عليه لا يخلو من محاذيرَ أبرزُها عدمُ تحقيق هذا الكتاب تحقيقاً علمياً يُراعى فيه ضبطُ ألفاظِ التصويت، والإشارةُ إلى الاختلافِ بين المرويِّ فيه منها وما روتْه مصادرُ مختلفةٌ نقلاً منه أو من غيره.

وكان لبعضِ مُؤلفاتِ النحو المتأخرةِ اهتمامٌ بألفاظ التصويت، ويُشارُ إلى ثلاثةٍ منها، أولها: شرحُ المفصّل لابن يعيش، والثاني: شرحُ كافية ابن الحاجب للأستراباذيِّ، والثالثُ: ارتشافُ الضرب لأبي حيّان الأندلسيِّ. وقد أفاد البحثُ من مصادر مختلفةٍ غير التي سبقت، ستردُ أسماؤها في البحث.

وأمّا عنايةُ المعجميينَ القدماءِ بالتصويتاتِ ومنهجهم فيها فتتمثّلُ بروايتها وجمعِها في معجماتِ اللُّغة، وبذكرِ استعمالها وما يُشتقُّ منها من أفعالٍ ومصادرَ؛ وتطالعُ هذه التصويتاتُ مفرّقةً في الجذور المعجميّة المختلفةِ بما لا يُمكّنُ من درس المشترك فيها، ومن ذلك ـ مثلاً ـ أنَّ ابن منظور (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م) قد ذكر في

باب (الخاء) وفصل (الهمزة) التصويت: (إِخْ) المستعمل في زجر البعير ليبرك، وذكر أنّه لا فعلَ له، إذ لا يُقال: أَخَخْتُ الجملَ، ولكنهم يقولون: أنختُهُ، وذكر في فصل (النون) وباب (الخاء): اشتقاق الفعل (نَخَّ) من التصويت السابق: (إِخْ)، وفي فصل (الياء) وباب (الخاء) ذكر الفعل (أَيْنَخَ) مُشتّقاً من التصويت: (إِيْنَخْ) المستعملِ في زجر الناقة إذا دُعيت للضِّراب(١).

وفي هذه المواضعِ كلِّها نجد كثيراً ممَّا يحتاجُ إلى تفسير وتعليلٍ، وأوّلُ ذلك: كيف استطاعتِ العربيّةُ اشتقاق الأفعال: (نَخَّ) و(أَيْنَخَ) من التصويتاتِ المذكورة، ولماذا عدلتْ عن اشتقاقِ الفعل الثلاثي المضاعف: (أخَّ)؟ والأمرُ الثّاني: أليس في ما ترويه كُتب اللُّغة ومعجماتها ما يُمْكنُ أنْ يُحمل على تطوُّر التصويت: (إِخْ) بإشباعِ الكسرة القصيرة وصيرورته على: (إِيخْ) بالياء المديّة الطويلة، وقد ذكره ابنُ يعيشَ (ت ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) على الصورة الناشئة من إشباع الكسرة وتحوّلها إلى الياء المديّة الطويلة(٢).

وأمّا معجماتُ المعاني فقد شاركتْ معجماتِ الألفاظِ في جمع التصويتات وروايتها - أيضاً - ففي معجم (المخصص) لابن سيده الأندلسيِّ (ت٤٥٨هـ/ ١٠٥٦م) نجد كثيراً من التصويتات في الأبواب والكتب المعقودةِ للمعاني المختلفة تُروى بمسمّى: (الزجر بالخيلِ والبغال والحمير) أو بمسمّى: (باب الصَّوْتِ بالإبل) أو: (الصَّوْت بالغنم)(٣). وكان لهذا النَّمطِ من المعجمات فضيلةُ جمعِ التصويتات التي تخصُّ هذا الحيوانَ أو ذاك في موضع واحدٍ إلاّ أنّها كانت أقلَّ عنايةً بالظواهر اللُّغويّة في التصويتات من معجمات الألفاظ على الرّغم من أنَّ منهج هذه المعجمات في التأليف وجمع الألفاظ في ضوء المعاني أقربُ إلى ما يُسمّى: (نظريّة

(١) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد، لسان العرب، (أخ) (نخ) (ينخ) ٣/٣، ٦٠، ٦٧.

(٢) ابن يعيش، موفق الدين يعيش بن علي، شرح المفصل، ٢/٢٤٨.

(٣) ابن سيده الأندلسي، أبو الحسن علي، المخصص، ٣/٢٤٢، ٣٧٩، ٤/١١.

المجالات الدلاليّة) التي يعرِّفها (أولمان) بأنّها: "قطاع متكامل من المادة اللغويّة يُعبّرُ عن مَجالٍ معيَّنٍ من الخبرة"(١).

وليس منهجُ معجمات المعاني ببعيدٍ عن منهج (كتب الفرق اللُّغويِّ)، فمن جملةِ الفروق الّتي عُنيت بها ألفاظُ التصويتِ المستعملةُ للإنسان وافتراقِها عن التصويتاتِ المستعملةِ للحيوان والطير، ويعدُّ كتابُ: (الفرق في اللغة) لقطرب (ت٢١٠هـ/ ٨٢٥م) أقدمَ كتابٍ مُؤلَّفٍ لهذه الغاية(٢). ومن ثَمَّ نجدُ الأصمعيَّ (ت ٢١٦هـ/ ٨٣١م) يؤلِّف كتاباً في الفرق وسمه: كتاب الفرق، اتّبع فيه نهج كتاب قطرب السالف، بيد أنَّ عنايته بألفاظ التصويت كانت قليلةً مقتضبة.

وأمّا المؤلّفاتُ النحويّةُ والصرفيّةُ القديمة فلم تُعن ـ في الغالب ـ بدرس ألفاظِ التصويت وجمعها إلا بمقدار ما يوضِّحُ مسألةً نحويّةً فيها، وهي بناؤها(٣)

ولعلَ ما هو حقيقٌ بالتنبيه عليه في هذه المقدّمة هو أنَّ حاجةَ هذه التصويتاتِ للتأصيل والدرس والبحث المستقلِّ فكرةٌ راودت بعضَ المتقدّمين من علماء اللغة، ومن ذلك ما أوردَهُ ابنُ جنيٍّ (ت٣٩٢هـ/ ١٠٠١م) في كتابه: (الخصائص) الّذي عرضَ فيه ـ بشيءٍ من الإيجاز ـ إلى أصلِ الألف في بعضِ الأفعال المشتقة من التصويتات للحيوان، من نحو: هاهَيْتُ وعاعَيْتُ وحاحَيْتُ، مثلما عَرَضَ إلى حذف الألف في بعضِ الأفعال، كحذفها في الفعل: دَعْدعتُ بالغنم المشتقِّ من التّصويت لها بـ: داعِ داعِ. فمثلُ هذه المسائل التصريفيّة وغيرها دفعته ـ قبلَ أنْ يؤلِّف كتابه: (الخصائص) ـ إلى أنْ يخصَّ ألفاظَ التصويت بكتابٍ يشرح فيه اشتقاقها وتصريفَها، يقولُ: "وقد كنتُ عملتُ كتابَ الزجر عن ثابتِ بن محمدٍ وشرحتُ أحوالَ تصريف ألفاظه واشتقاقها، فجاء منه شيءٌ صالحٌ وطريفٌ، وإذا

(١) الضامن، حاتم صالح، علم اللغة، ٧٥.

(٢) قطرب، أبو عليّ محمد بن المستنير، الفرق في اللغة، تصدير رمضان عبد التواب للكتاب.

(٣) ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله، شرح ابن عقيل، ٢ / ٢٨١، ٢٨٢.

ضممتَهُ إلى هذا الفصل كَثُر به، وأَنِسَ بانضمامِه إليه"(١). ولعلَّ كتاب ابن جنّي الذي ذكره لم يصل إلينا، أو أنّه في عداد المخطوطات التي لم ترَ النور بعدُ.

ولكنَّ ابنَ فارس (ت٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م) له رأيٌ آخرُ في تفسير ألفاظ التصويت ذكره في (باب القول على أنَّ لغة العرب لم تنته إلينا بكليتها وأنَّ كثيراً من الكلام ذهب بذهاب أهله) وخلاصةُ هذا الرأي أنَّ ألفاظ التصويت أو ما وسَمَه: الزَجَر والدعاء لا يُفهم موضوعُها ولم يفسّره أحدٌ، ومن ذلك قولهم: هلْ وهَجْ وهجا ودَعْ، وهابِ وعَدٍّ وعاجِ ويا عاطِ ويَعاطِ، وإجَدْ وإجْدِمْ وحِدِّجْ. وقد نقل هذا البابَ السيوطيُّ (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م) في كتابه: (المزهر)(٢).

وقد أهملت الدراسات اللُّغويّةُ الحديثة هذه التصويتاتِ ما عدا بعض المؤلفات القليلةِ الّتي سعتْ إلى جمع أسماء الأصوات والحكايات(٣). واتّكأتْ بعضُ الدراساتِ على بعض التصويتات وما يشتقُّ منها من أفعال لتعزيز نظريّةِ نشأة الأفعال العربيّة من أصول ثنائية(٤).

(١) ابن جنّي، أبو الفتح عثمان، الخصائص، ٣/ ٢٣٤.

(٢) ابن فارس، أبو الحسين أحمد، الصاحبي، ٦٢-٦٤، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ١/ ٦٩، ٧٠.

(٣) صدر حديثاً معجمانِ في أسماء الأصوات والحكايات، أحدهما: المعجم المفصل في الأصوات، لكوكب دياب، نشرته في طبعته الأولى دار (جرّوس برس) في بيروت، سنة ١٩٩٦م، والثاني: معجم أسماء الأصوات وحكايتها، لمحمد عواد الحموز، نشرته في طبعته الأولى دار صفاء في عمان، سنة ٢٠٠٧م.

(٤) ينظر في التعريف بنظريّة ثنائية الألفاظ: المعايطة، ريم، بنى الأفعال العربيّة في معاجم الأفعال دراسة صوتية صرفيّة، ١٤٣-١٤٨.

المبحثُ الأوّل: نشأةُ التصويتات، ومنهجُ وضْعِها اللُّغويِّ، ودلالاتها واستعمالها

يتناول هذا المبحث نشأةَ التصويتات ومنهجَ ووضْعها اللُّغويِّ ودلالاتِها واستعمالها؛ اتكاءً على المرويِّ منها في المؤلّفاتِ اللُّغويّة.

المحور الأوّل: نشأةُ التصويتات وتطوّرها

تفسِّرُ نظريةُ (المحاكاة) نشأةَ اللغةِ الإنسانية على عموم ما فيها من ألفاظ بذهاب أصحابِها إلى أنَّ ألفاظَ اللغة تنشأُ من محاكاةِ الأصواتِ المسموعةِ في الطبيعة، وقد أشار ابنُ جنّي إلى ذلك بقوله: "وذهب بعضُهم إلى أنَّ أصل اللغات كلها إنّما هو من الأصوات المسموعات كدوَيِّ الريح، وحنينِ الرعد، وخرير الماء، وشحيجِ الحمار، ونعيقِ الغراب... ثمَّ ولدتِ اللغةُ من ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجهٌ صالح، ومذْهبٌ مُتقبَّل"(١).

وبغض الطرفِ عن صلاح هذه النظريّة لتفسير نشأة اللغة وعدم صلاحِها فإنَّ جذورَها مستمدّةٌ من آراء الخليل بن أحمد (ت١٧٠هـ/٧٨٦م) قبل أن يتناولها ابن جنّي في القرن الرابع الهجريِّ. فقد كان الخليل يديرُ هذه الفكرة في معجمه: (العين) بما يجعلها أقربَ إلى كونها وسيلةً لغويّةً اشتقاقيّة، يقولُ: "والهجْهجةُ، حكايةُ صوتِ الرجل إذا صاح بالأسدِ... وفحلٌ هَجْهاجٌ في حكاية شدّة هديرِه والهجْهاجُ: النَّفور، وهَجْهَجْتُ بالناقة وبالجملِ إذا زجرته، فقلت: هِيْجْ هِيْجْ... وإذا حكَوْا ضاعفوا هَجْهَجَ كما يضاعفون الوَلْوَلَةَ من الويلِ، فيقولون: وَلْوَلَتِ المرأةُ، إذا أكثرتْ من قولها: الويل"(٢). ومعنى ما ذكر الخليلُ أنَّ الحكايةَ وسيلةٌ من وسائل اشتقاقِ الألفاظ اللُّغويّة من أصولٍ موضوعةٍ، فمنِ استعمالِ العربِ للتصويت: هِيْجْ نشأَ الفعلُ الرباعيُّ: هَجْهَجَ ومصدرُه: الهجهجة، والاسمُ

(١) ابن جنّي، الخصائص، ١/٤٧، ٤٨.

(٢) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، (هج) ٣/٣٤٣. وسنشير إليه لاحقاً بالخليل.

(الهجهاجُ) المنعوتُ به الفحلُ بمحاكاة هذه المشتقات للتصويت الّذي نشأتْ منه، بتكريرِ أصواته اللغويّة أو مضاعفتها في هذه الألفاظ المشتقة.

وأمّا ابنُ يعيشَ فكان يسمّي التصويتات: (أصواتاً محكيّة) ولعلّه يريد بهذا الوسم أنّها محْكيّةٌ بما يشتقُّ منها، يقول: "وقالوا: "حَوْب" وهو صوتٌ يُزجر به الإبل، يُقال: حوَّبتُ بالإبل إذا قلت لها "حَوْب، وهو مبني؛ لأنّه صوتٌ محكيٌّ... قال ابنُ دُريد: وقد يُزجر البعيرُ فيُقال له: سَعْ، وهو صوت ـ أيضاً ـ مبنيٌّ محكيٌّ"(١).

ويعدُّ الأستراباذيُّ (ت٦٨٦هـ/١٢٨٧م) من أكثر اللُّغويين المتأخرين عنايةً بدرس نشأة التصويتات وتطورها دون اشتقاقِها، فقد درسَ نشأةَ هذه التصويتات وعرضَ إلى تطورها من مرحلةٍ كانت فيها عبارة عن أصوات مجرّدة إلى مرحلة استعمالها في التراكيب اللغويّة، واكتسابها بعضَ خصائص الاسم، ومحاورُ درسِه لها تتلخَّصُ بما يأتي(٢):

١- أسباب نشأة التصويتات وقِدمُ استعمالها

يبيِّن الأستراباديُّ أن السببَ الرئيسَ في نشأة التصويتات يعودُ إلى مرحلة احتياج الناسِ إلى ترويضِ الحيوان، وطَلَبِ انقيادِه إليهم، فهذه التصويتاتُ تصاحبُ ضربَ الحيوانِ أو إطعامه، وإلى جانب هذه التصويتات الموضوعةِ لهذه الغاية كان الناس يتّكئون على الصفير الذي لا يتركَّبُ من حروفٍ لغوية: (أصوات لغويّة)، وفي مرحلةٍ لاحقةٍ يُستغنى عن ضرب الحيوانِ أو إطعامه بهذه التصويتات؛ لتصوُّرِ الحيوان ما كان يصحبُها من الضربِ أو الإطعامِ، أو كما يقول الأستراباذيُّ: "فكان الحيوانُ يتمثلُ المراد منه، إمّا رهبةً من الضربِ أو رغبةً في ذلك البرِّ... فصار ذلك الصوتُ المركب من الحروف، كالأمر والنهي لذلك الحيوان"(٣).

(١) ابن يعيش، شرح المفصل، ٢/٢٤٥.

(٢) الأستراباذيّ، رضي الدين محمد بن الحسن، شرح كافية ابن الحاجب، ٣/١٩٩-٢٠١.

(٣) المصدر السابق ٣/٢٠٠.

٢- علة تأليف التصويتات من حروف (أصوات لغويّة)

يبيّنُ الأستراباذيُّ أنَّ من الجائز - ابتداءً - أنْ يضعَ الناسُ أيَّ نمطٍ من (الأصوات الساذجة) للتصويت بها للحيوان، بيد أنَّهم وضعوا هذه التصويتات وألَّفوها من حروف (أصوات لغويّة) لسهولةِ النّطقِ بالصوت اللغويِّ بالمقارنة مع ما يمكن تكلّفُه من وضع (الأصوات ساذجة) يقول: "وإنّما وضعوا لمثلِ هذا الغرضِ صوتاً مركباً من الحروفِ، ولم يقنعوا بساذجِ الصوتِ؛ لأنَّ الصوتَ من حيث هو متشابه الأفراد، وتمايزها بالتقطيع والاعتماد بها على المخارجِ سهلٌ"(١).

٣- اعتباطيّة دلالة التصويتات وسبب تنوّعها

يشير الأستراباذيُّ إلى أنَّ التصويتات - وإن أُلّفتْ من أصواتٍ لغويّة - فإنّها لا تشتملُ على أيِّ معنى، يقولُ: "فيُصوّت لها - أي للحيوانات - إما بصوتٍ غير مركبٍّ من الحروف، كالصفير للدابة عند إيرادها الماءَ، وغير ذلك، وإمّا بصوتٍ - تصويت - معيّنٍ مركّبٍ من حروف معيّنة لا معنى تحته"(٢).

وأما سبب اختلاف ألفاظ التصويتات وتركيبها من الأصوات (الحروف)، فيفسره بقوله: "فلمّا كانت الأفعالُ المطلوبةُ من الحيواناتِ مُختلفةً؛ أرادوا اختلافَ العلاماتِ الدالةِ عليها، فركّبوها من الحروف"(٣).

٤- استعمالُ التصويتات في التراكيب النحويّة

يبيِّن الأستراباذيُّ أنَّ مخاطبةَ الحيوانِ أو التصويت له بهذه التصويتات لا يخرجُها من دائرة الاعتباطيّة وخلوِّها من المعنى، فهي مجردُ أصواتٍ، ولكنَّ احتياجَ الناسِ إليها في أثناءِ كلامِهم ومخاطباتِهم يخرجُها من طور الأصواتِ لتلحقَ بالأسماءِ، فتنسحبُ عليها بعضُ خصائصِ الأسماءِ، كالتنوينِ، والألف

(١) المصدر السابق، ٣/ ٢٠٠.

(٢) المصدر السابق، ٣/ ٢٠٠.

(٣) المصدر السابق، ٣/ ٢٠٠.

واللام والإعراب، وهذا مشروطٌ بقصدِ لفظ الصوت لا معناه، وقد وضّح هذه الخصائص في التصويتين: (حَيْهَل) و (عاجِ) في ضوء ما ورد في بيت جَهْم بن العباس:

تُرَدُّ بِحَيْهَلٍ وعاجٍ وإنّما من العاجِ والحَيْهَلِ جُنَّ جُنونُها

فالمعروف أن (عاجِ) تصويتٌ تُزجرُ به الإبلُ، ولكنّه صار اسماً مُعرباً في البيت الشعريِّ؛ لأنّه قُصد لفظه وليس معناه، ودليلُ ذلك الجرُّ والتنوينُ والتَّعريف الذي لحق به(١).

ومن الأجدى ـ بعد ذلك ـ ألاَّ يُنظرَ للأستراباذيِّ على أنَّه من زمرةِ القدماء القائلين باسميّةِ التصويتات، إذْ أُجملَ مَعَهم في قولِ تمام حسّان: "خالفة الصوت، ويسميها النحاةُ: (اسم الصوت) ولا يقومُ دليلٌ على اسميتها، لا من حيث المبنى، ولا من حيث المعنى، فهي لا تقبلُ علاماتِ الأسماء إلا على الحكاية"(٢). فالحكايةُ ـ هنا ـ لا تعني إلاّ ما يدورُ في فلك قصد اللفظ وليس المعنى، وقد بيّنه الأستراباذيُّ.

المحور الثاني: منهجُ الوضع اللُّغويّ

ما في هذا المحور درسٌ للمناهج الّتي سلكتها اللُّغةُ في وضع التصويتات من أصولٍ يشهدُ الاستقراءُ بأنَّها تدور في فلكِ ما يتعلّق بالحيوان نفسه في بعضِ حالات الوضع، ولا ينفي ذلك أنْ كثيراً من التصويتاتِ لا يُستطاعُ رَدُّها إلى أصلٍ ما؛ لأنَّ بناءَها اللغويَّ يخلو من المعنى، وتنقطعُ الصلةُ بين هذا البناءِ والجذورِ المعجميّة في كثيرٍ من الحالات؛ فتصيرُ هذه التصويتاتُ عبارةً عن ألفاظٍ لا معنى لها إلا مجرد التصويت.

وفيما يأتي تفصيلٌ لمنهج اللُّغةِ في وضْع التصويتات:

---

(١) المصدر السابق، ٣/ ٢٠١، ٢٠٢.

(٢) حسان، تمام، اللغة العربيّة معناها ومبناها، ١١٤.

١- نقلُ اسمِ الحيوان إلى التَّصويت له به

من هذا النَّقل ما توردُه مصادرُ اللُّغةِ في التّصويتين: (حَوْب) المذكورِ في زجر الجمل، و(عَدَسْ) المستعمل في زجر البغل.

فاستعمال هذين اللفظين ـ ابتداءً ـ كان بإطلاقهما اسمين للجمل والبغل، فلما عُرفا بذلك صار الاسمان زجرين لهما، ومن استعمال الأوّل اسماً للجملِ قولُ الشاعر:

هي ابنةُ حَوْبٍ أُمُّ تسعين آزَرَتْ أخاه تمري جَباها ذوائبُه

ومن استعماله تصويتاً للإبلِ قولُ أبي النجم: (من الرّجز)

إذا استحثُّوها بحوبٍ أو حَلي

وقد ورد استعمال (عَدَسْ) تصويتاً في قول ابن مُفرِّغ الحِمْيريِّ:

عَدَسْ ما لِعبّادٍ عليك إمارةٌ نجوتِ وهذا تحملينَ طَليقُ

واسْتُعمل اسماً في قول الشاعر: (من الرجز)

إذا حملْتُ بزّتي على عَدَسْ

على الذي بينَ الحمارِ والفَرَسْ

على أنَّ من القدماء مَنْ يخالفُ فيرى أنَّ (حَوْب) و(عَدَسْ) استعملا تصويتين ـ ابتداءً ـ للزجر، فلما عُرف ذلك فيهما صارا اسمين، وثمةَ رأيٌ ثالثٌ يذهب إلى أنَّ (عَدَسْ) أو (حَدَسْ) اسمانِ لرجلينِ على عهد سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ يُعنِّفان بالبغالِ، فكان البغلُ إذا قيلَ له ذلك خافهما من شدّة ما يلقى منهما[١].

وإذا احتكمنا إلى جمهور آراء القدماء في هذه المسألة فإنَّا نرجّحُ استعمالهما تصويتين ابتداء، ومن ثَمَّ صارا اسمين لهما بعد ذلك، ويؤيِّد ذلك أن بعض

(١) ينظر: ابن دريد، جمهرة اللغة (حوب) ١/ ٢٨٥، ٢٨٦، ابن سيده، المخصص، ٣/ ٢٤٣، ابن منظور، لسان العرب، (حوب) ١/ ٣٤٠، ٣٤١، (حلل) ١١/ ١٧٤.

التصويتات قد انتقلت لتصير اسماً للجمل أو للناقة، ومن ذلك الاسمان: الدَّهْداهُ والحَلْحالُ المشتقَّان من التصويتين: (دَهْ) و (حَلْ)[1].

وأمّا ما يُذكرُ من كون (عَدَسْ) أو (حَدَسْ) اسمين لرجلين كانا على عهد سليمان يُعنِّفاف بالبغال، وما رُوي من خوف البغال منهما إذا ذُكرَ اسمهما فذلك أقربُ إلى التفسير المستمدِّ من الروايات الشعبية الّتي لا تتصلُ بسندٍ تأريخيٍّ.

٢- الاجتزاء ببعض أصوات اسم الحيوان ونقلها للتصويت

يُصار في هذا المنهج إلى الاجتزاء ببعض أصوات اسم الحيوان ونقلها إلى التصّويت له بها، وإنْ لم يذكرِ القدماءُ ذلك. وما يمكنُ حملُهُ على هذا المنهج يدورُ في فلك التصويتات الآتية:

- تَسّ في زجر التَيْسِ و(عَزْ) في زجر العنز و(عَدْ) في زجر البغل في رأي من يذهب إلى أنَّ (عَدَسْ) اسمٌ للبغل ومن ثمَّ صار تصويتاً له، وذكر ابن منظور أنَّ (عَدْ) من نطق العامّة، يقولون: عَدْ بدلاً من: عَدَسْ. بيد أنَّ قطرباً ذَكَرَهُ في زجر الحمار، وذكر الأصمعي أنَّهم يقولون للبغل: عَدْ وعَدَسْ[2].

ومقتضى ما ذكر ابن منظور يعني أنَّ العامّةَ يسقطون من نطقهم صوت السين من زجر البغل بـ: (عَدَسْ) وما ذكره قطرب يشير إلى كون (عدّ) تصويتاً آخر غير (عَدَسْ) الذي يستعمل لزجر البغل. ويمكن تفسيرُ ما ذُكر بأنَّ التصويت (عَدَس) مستعملٌ في زجر البغل والحمار، وأنّه بسبب السّرعة والاقتصادِ اللغويِّ وتكرير استعمال هذا التصويت تسقطُ السين من اسم الحيوان (عَدَسْ) ويُنقل ما فَضُل منه ليصيرَ تصويتاً، وهو ما يُلمح في التصويتين: (تَسَّ) و(عَزْ) فقد صارَ الأولُ تصويتاً بعدَ إسقاطِ الياء من الاسم: (التيس) وصارَ الثاني تصويتاً بعد إسقاط

(١) ابن منظور، لسان العرب، (حلل) ١١ / ١٧٤، (دهده) ١٣ / ٤٨٩-٤٩١.

(٢) قطرب، الفرق في اللغة، ١٧١، ١٨٢، ١٨٣، الأصمعيّ، كتاب الفرق، ١٠٩. ابن منظور، لسان العرب، (عدس) ٦ / ١٣٢، ١٣٣.

النون من الاسم: (العَنْز).

ونستطيع أن نفسِّرَ بعضَ التصويتاتِ المستعملة للطيور وفاقاً لمنهج الاجتزاء السابق، فقد ورد استعمالهم التصويت (دِكْ) للديكِ و(دِجْ) للدجاجة(١).

٣- نقل صوت الحيوان إلى التصويت

لا نقصدُ بصوتِ الحيوان - هنا - الألفاظَ اللُّغويّة الموضوعة لمسمّى الصوت على عمومِه، كوسمِهم صوتَ الخيلِ صهيلاً، وصوتَ الأسودِ زئيراً، وما أشبه ذلك، بل المقصودُ الألفاظُ الّتي وَضَعها العربُ محاكاةً لبعض أصوات هذه الحيوانات في سياقات معيّنةٍ، ومن ثَمَّ صارت هذه الألفاظُ تصويتاً يزجرون به هذه الحيوانات.

ومن جملةِ التصويتات الّتي نلمحُ فيها هذا المنهج قولُهم:

- هَبْ في التصويت للفرس والإبل والحمار، وقد عدَّه ابنُ منظور صوتَ التيس عندَ الهِباب (السِّفاد) أو هو تصويتٌ له لينزوَ على الأُنثى(٢).

لقد تطلب هذا التصويتُ أن نراقبَ صوت التيس عند السفاد وطلب الأنثى فاتّضحَ أنّ محاكاةَ العربِ لهذا الصوت بقولهم (هَبْ) قريبةٌ من ذلك، فأكثرُ ما يميزُ صوت التيسِ جريانُ النفسِ ومرواحةُ شفتيه بين الانطباق والانفتاح، وبناءً على ذلك فإنّ (الهاء) الحنجريّة في التصويت (هَبْ) تحاكي جريانَ النفس، وفي هذا الصوتِ اللغويِّ ما يرشّحُه لمحاكاة صوت التيّس، فقد وصف الخليلُ بنُ أحمدَ (الهاء) بقوله: "وإنّما هي نفسٌ لا اعتياصَ فيها"(٣). وأمّا انطباقُ الشفتين فقد حوكي بالباء الشفويّة، وعلى ذلك نرى أنَّ قولهم (هَبْ) هو لفظٌ مُحاكى به صوت التيس في الأصل، ومن ثمَّ انتقل ليصيرَ تصويتاً لزجره، وتوسّعت دلالةُ الزجر فيه لتشملَ ضروباً من الحيوان، كالإبل، والخيل وغير ذلك، والدليلُ على ذلك أنَّ هذا

(١) قطرب، الفرق في اللغة، ١٨٥ الأشموني، منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، ٣/ ٣٨٢.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، (هبب) ١/ ٧٧٨، ٧٨٠.

(٣) الخليل، العين، ١/ ٥٤، (هب) ٣/ ٣٥٥.

التصويت صار اسماً للتيس نفسه أو للراعي، يقول الخليل: "والهَبْهَبيُّ: تيسُ الغنم، ويُقال: بل راعيها، قال:

كأنــهّ هبهبيٌّ نامَ عن غَنَمٍ مَسْتأْورٌ في سوادِ الليلِ مَذؤوبُ"(١)

- برْ، اخْتلِفَ في هذا التصويت بين كونه لسْوق الغنم أو لدعائها، وقد اسْتُعْمِلَ في مَثَلٍ للعرب، وهو قولهم: "ما يعرفُ هِرًّا من برٍّ." ومن معاني (البَرْبَرة) التي ذكرها ابنُ منظور، صوتُ التيس عند الهياج(٢). وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّه لفظ يُحاكى به صوت التيس عند الهياج، ومن ثَمَّ انتقل ليكونَ تصويتاً له.

والذي نراهُ على خلافِ ذلك، ففي لهجات البادية الأردنية يُستعمل (برْ) تصويتاً لدعاء الغنم، وليس ثمة ما يشير إلى انتقاله من محاكاة صوت التيس في هذه اللهجات، ولا كذلك مراقبةُ صوتِ التيس عند الهياج قريبٌ - من ناحية صوتية - لأن يُحكى بهذا التصويتِ.

وليس كلُّ ما وُضع محاكاةً لصوتِ التيس قد انتقل ليكونَ تصويتاً له، ومن ذلك أنَّ (اللَّبْلَبَة) و(النَّبْنَبَة) عبارةٌ عن حكايةٍ لصوت التيس عند السِّفاد(٣). ولكنَّ المصادرَ اللغويّة لا تذكرُ شيئاً يشيرُ إلى انتقالهما للتصويت له بهما.

وقد بيّن الأستراباذيُّ أصولَ المحاكاة العامَّة للأصواتِ المسموعة ومنهجَها اللُّغويَّ، وعلّةَ وضْعِ المحاكاة على أصوات لغويّة، يقول: "لمّا احتاجوا إلى إيرادِ أصواتها - التي هي شبه المركب من الحروف - في أثناء كلامهم، أعطوها حكمَ كلامِهم من تركيبها من حروف صحيحةٍ؛ لأنّه يتعسَّرُ عليهم، أو يتعذَّر مثل تلك الأجراسِ الصادرة منها... فأخرجوها على أدنى ما يمكنُ من الشّبه بين الصوتين، أعني الحكاية والمحكيَّ؛ قضاءً لحقِّ الحكايةِ، أي: كونها كالمحكيِّ سواء، فصار الواقعُ في

(١) المصدر السابق، (هب) ٣/ ٣٥٦.

(٢) ابن سيده، المخصص، ٤/ ١١، ابن منظور، لسان العرب، (برر) ٤/ ٥٤.

(٣) ابن سيده، المخصص، ٤/ ٣.

كلامهم كالحكايةِ عن تلك الأصوات"(١).

٤- وضعُ التصويت من اسم ما تُعقل به الحيوانات

ويُروى من هذا الوضع قولهم:

- حَبْلْ، في التصويت للمَعَز، ذكره قطرب بقوله: "ويقول الساقي إذا زجرها عنه: حَبْلْ حَبْلْ"(٢).

ومعنى الحبل معروف في اللغة، ويتّضحُ من استعمالِه تصويتاً أنَّهم نقلوه دون تصرفٍ فيه بزيادةٍ أو حذفٍ، ويؤيّد ذلك أنَّ لهجاتِ البادية الأردنية تستعملُ هذا الاسمَ تصويتاً للغنم والمَعَز، يقولون: حَبْلِكْ أو حَبْلِتِشْ بقلب الكاف إلى الصوت (تش) وهو ما يُعرف بالكشكشة في اللهجات العربيّة القديمة.

- ارْبُقْ، ذكره أبو حيان الأندلسيُّ في عداد ما يصوّت به للحمار، على حين عدّه قطربٌ تصويتاً للمَعَز، يقول: "وقالوا في ارْقبْ: إنّما هو: ارْبقْ، وقال المُخَبَّلُ:

وكَفَرْتُ قوماً هم هَدَوْكَ لأَقْدِمي إذا كان زجرُ أبيكَ سَأْسَأْ وارْبُقْ"(٣)

وفي النصِّ المذكورِ لقطربٍ نلمحُ اضطراباً في الضَّبط ونقصاً في المعنى، فالظاهرُ أنَّ قُطْرباً يريدُ القولَ: إنَّ التصويت المستعمل في زجر المَعَز هو (ارْبُقْ) وليس (ارْقُبْ) ويناسبُ ما أرادَ أنْ يكونَ النصُّ على النَّحو الآتي: "وقالوا في [زجرها]: ارْقُبْ، وإنما هو: ارْبُقْ". وضبطُ الفعل (كفرتُ) مسنداً إلى ضمير المتكلم في بيت المخبَّل لا نراهُ صواباً؛ لأنَّ الخطابَ موجّهٌ لمن أنكرَ نعمةَ القومِ الّذين جعلوا أباه محارباً يزجرُ الخيلَ بقوله: (أَقْدِمي) بعد أن كان راعياً لا يعرفُ إلاّ زجرَ الحمار بـ: (سَأْ) وزجرَ المَعَز بـ: (ارْبُقْ).

والبيتُ من شواهد الفراءِ في (معاني القرآن) وقد رُويَ بإسنادِ الفعل: (كفرتَ)

(١) الأستراباذيّ، شرح كافية ابن الحاجب، ٣/١٩٩.

(٢) قطرب، الفرق في اللغة، ١٨١.

(٣) الأندلسي، أبو حيان، ارتشاف الضرب، ٥/٢٣١٣، وينظر: قطرب، الفرق في اللغة، ١٨١.

لضمير المُخاطب على الصحيح، بيد أنَّ توضيحَ محقِّقِ هذا الكتاب لقول الشاعر: (اربْق) ليس دقيقاً، فقد ذكر في هذا الأمرِ ما نصُّهُ: "وقولُه: اربُقْ أي: اربط الغنم في حبلٍ يجمعُها"(١). فليس هناك أيّ أمرٍ بالربط سوى أنَّ الشاعرَ قد أرادَ استعمالَه تصويتاً للغنم أو المَعَز مثلما تنطقُ به ألسنةُ الناسِ.

وتذكر معجماتُ اللغةِ أنَّ (الرِّبقَ) عبارةٌ عن الحبل والحَلَقةِ الّتي تشدُّ بها الغنمُ الصِّغارُ لئلا ترضعَ"(٢). ويقتضي ذلك أنْ يكونَ هذا الاسم مصدراً لاشتقاق الفعل (اربُق) الذي انتقل ليكونَ تصويتاً يُزجر به الغنم والمَعَز. وما انفكّ أهلُ البادية الأردنية يستعملون اسم الحبل (الربق) تصويتاً للغنم والمعَزِ، يقولون: اربْقْ. بنطقِ القافِ كالجيم القاهريّة، أو بنطقِها مركَّبةً من صوتي الدال والشين المجهورة.

٥- نقلُ التصويت من اسم المكان المراد زجرها إليه

ومما يمكن حملُهُ على هذا النقل ما أورده قطربٌ في زجر الكلب بقوله: "ويُقالُ للكلب: أخله بالخاء"(٣).

ومن غير شكٍّ أنَّ مرادَ قطربٍ بقوله (أخله) هو (المكان الخلاء) الذي يخلو من الناسِ، ويوضح هذا المرادَ أنَّ لهجاتِ البادية الأردنية مازالت تستعملُ هذا التصويت لزجر الكلب إلى الخلاء ينطقونه هكذا: (الخَلا)، وقد توسعت دلالة هذا الزجر لتشملَ زجرَ الإنسان في حالات الغضبِ والحطِّ من الشأن. وعلى ذلك يكون ما جرى في التصويت الفصيحِ (أخله) هو أنَّ أصله: (الخلاء) أُسقطت منه (اللام) وقُصِّرت ألف المد الطويلة وأُبدلت الهمزةُ الحنجريّة إلى (الهاء) الحنجرية، فيكونُ الضبطُ المحتملُ لهذا التصويت على النحو: (أَخْلَهْ). ومشكلُ ضبطِ التصويتات في النصوص التراثيّة ليس بالقليلِ.

(١) الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد، معاني القرآن، ٢/١٦، الهامش (٩).

(٢) ابن منظور، لسان العرب، (ربق) ١٠/١١٢.

(٣) قطرب، الفرق في اللغة، ١٨٣، ١٨٤.

٦- نقلُ نعت الحيوان مرخّماً أو مُصغّراً إلى التصويت

ويرد هذا التصويت في عباراتٍ مبدوءةٍ بقولهم: (أشلى) أو مركّباً من جزأين على النحو المرويِّ الآتي:

- أشْلى إليك أسْفعُ، وأشلى إليك بُرْقُعُ، أو بُرْقَعُ. وقد بيَّن قطربٌ إحدى العباراتِ المشابهةِ بقوله: "وأشلى إليك مَدُيْرى، كأنّه قال: مَدُريّة فرخّمها، أسماء غنم كلّها، والإشلاء: الدّعاءُ".

ومن المركب من جزأين ما أوردَهُ بقوله: "وقالوا: أَبْطُ بِطان، وكَحْلُ كُحيل، وأَصْمعُ صُميع - يريد: بِطانة وكُحيلة، وأَدَم وأُدَيْم، وأسودُ سُويد: زجر للمعَزِ كله لينزوَ"(١).

والظاهر أنَّ ما عَدَّه تصويتاً قطربٌ يعودُ في حقيقته إلى صفاتٍ للغنم والمَعَز، فقد ذكر ابنُ سيده أنَّ الكحلاءَ من النِّعاج عبارة عن البيضاءِ السوداءِ العينين، وأنَّ الصّمعاء من المَعَز: الّتي أُذنها بين السَّكاء والأذناء كآذانِ الظِّباء المصمَّعة، وأنَّ السفعاءَ: مسوّدة الخدين، وسائر جسمها أبيض(٢).

٧- التصويتاتُ المستمدَّةُ من حركات اللِّسان والشفتين

يُعتمد في وضع هذه التصويتات على حركةِ اللِّسان والشفتين وما يصدرُ عنهما من أصوات غير لغويّة، ويُسمى مجموعُ هذه الحركات بأقربِ الأصوات اللغويّة التي يمكنُ أن تحكيَ هذه الحركات، ومن ذلك أنَّهم يسمّون إلزاقَ اللِّسان بالحنك نقراً يُصوَّتُ به للخيل وغيرها، ولتوضيحِ ذلك نتكئُ على ما ذكر ابنُ سيده في باب: "الزجر بالخيل والبغال والحمير" فقد بيّن النَّقر بقوله: "والنَّقرُ: أنْ تَلْزِقَ لسانَكَ بِحَنَكِكَ ثمَّ تصوِّتَ، وقد نَقَرْتُ بالدّابة". وأمّا حركةُ الشفتينِ فتبدو من مصاحبتِها لتصويتاتٍ موضوعةٍ أصلاً، يتّضحُ ذلك من قولِ ابنِ سيدة - أيضاً - في

(١) المصدر السابق، ١٨٣.

(٢) ابن سيده، المخصص، ٣/ ٢٤٣، ٥٣١، ٥٣٦.

التصويت: إِسْ أو أَسّ المستعمل في زجر الشاة: "وقد نَسَسْتُ أَنسُّها نَسّاً: إذا زجرتها، فقلت: إِسْ إِسْ تشيرُ بالشّفة"(١).

فالإشارة بالشّفة تصاحب التصويتَ السابق، وقد تكون مصاحبةُ حركة الشفتين تصويتاً ما مُختلفاً فيها على ما يُفهم من بعض الروايات في التصويت: (بُسٌّ) فقد ذُكِر في هذا التصويت أنّه يُستعملُ لدعاءِ الغنم أو زجرِ الحمار، وروِيَ أنَّ (البسوس) هي: الناقة التي لا تدرُّ إلا بالإبساس، وهو أن يُقالَ لها: بُسٌّ، أو أنَّ الإبساس صويت تسكّن به الناقة عند الحلب، يكون بالشفتين دون اللِّسان(٢).

وما تعنيه إشارةُ الشفتين لا يَعدو الأوضاعَ الّتي تتخذُها الشفتان أثناء النطق بالضمّة أو الكسرة أو الفتحة.

فالملحوظُ أن الشّفتينِ تستديران مع تقدُّمِ زاويتها إلى الأمام عند النّطقِ بالضمة، وتنفرجان مع انسحاب زاويتهما إلى الوراء عند النطق بالكسرة، وتكون الشفتان متساويتين تتخذان وضعاً محايداً عند النطق بالفتحة(٣). وفي لهجات البادية الأردنية يُتّكأُ كثيراً على أوضاع الشفتين ومصاحبة ذلك لكثيرٍ من التصويتات، وأول هذه التصويتات قولهم: أُسْ أو إِس في زجر الشاةِ والمَعَز كحال التصويت الفصيح ضبْطاً واستعمالاً، وقولهم: (جُؤْ أو جِئْ) في التصويت للحمار المورَّد ليشرب، ينطقونه بانفراج الشفتين أو باستدارتهما، وقولهم: قِسْ أو قُسْ في التصويت للكلب يدعونه للإقبال.

إنَّ مرونةَ عضلةِ اللِّسان والشفتين قد مكّنت الناطقين من الاستفادة منها؛ ليتمَّ لهم نمطٌ من التصويت المركّب من ألفاظ التصويت وإشارة الشفتين أو حركة اللّسان.

---

(١) المصدر السابق، ٤/ ١٢.

(٢) ينظر: ابن دُريد، جمهرة اللغة، (بسّ) ١/ ٦٩، ابن منظور، لسان العرب (بسّ)، ٦/ ٢٧، ٢٨، الأشموني، منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، ٣/ ٣٨٢.

(٣) المطلبي، غالب، في الأصوات اللغوية، ٣٤، ٣٥.

٨- نقلُ الأفعال إلى التصويتات

يُصارُ في هذا المنهجِ إلى نقلِ بعض أفعال اللغة إلى التصويتات ليصير هذا النقلُ مدعاةً إلى انقطاع الصِّلة بين التصويت وحقيقته الفعليّة في تأصيل القدماء، ومثال هذا النقل ما ذكره قطربٌ في التصويت للخيل بالتصويتات: هِجْدْ وهِجْدَمْ وإِجْدَمْ، يقول: "قالوا في الفرس: إِحَهْ وهِجْدْ وإِجْدَمْ وهِجْدَمْ، وقال ابن الرِّقاع:

هُنَّ عُجْمٌ وقد علمْنَ من القوْلِ هِبّى واجْدَمي ويايَ وقومي"(١)

وذكر أبو حيان الأندلسيُّ هذه التصويتات بقوله: "وإِجِدْ إِجِدْ، وهِجِدْ هِجِدْ، وتقدَّم ذكرُ ابنِ مالكٍ لهما في فصل (الأفعال الّتي لا تتصرَّفُ) وذكرهما قطربٌ وزاد (وإِجْدَمْ) فزاد فيه الميم(٢). وذكر بعضُ القدماءِ أنَّ التصويتين: إِجْدَمْ وهِجْدَمْ قد اشْتُقّا من حكايةِ ابنِ آدم الّذي قتل أخاه، فحينَ حَمَلَ على أخيه زجر فرسَهُ قائلاً: هِجِ الدَّم، فلما كَثُر ذلك على الألسنةِ اقْتُصر من ذلك على قولهم: (إِجْدَمْ) و(هِجْدَمْ)(٣).

والظاهرُ أنَّ هذه التصويتات عبارَةٌ عن فعلِ الأمرِ: (أقْدمْ) أُبدلت الهمزة هاءً والقاف جيماً فنشأ التصويت الفعليُّ: (هِجْدَم) ومن ثمَّ سقطت (الميم)؛ لكثرةِ دوران هذا الفعل على الألسنة تصويتاً؛ فنشأ الفعلُ (هِجْدْ) ويلحظُ سقوطُ الميم قبل إبدال الهمزة هاءً في (إِجْدْ) وبناءً على ذلك فإنَّ الميم أصلية وليستْ مزيدة كما يذكر أبو حيّان.

ويؤكِّد ما ذهبنا إليه ما ذكره ابنُ منظور من أنَّ: أَقْدِم وأَقْدُمْ زجرٌ للفرس، وأمر له بالتقدُّمِ؛ إلاّ أنَّه عدَّ كسرَ الهمزة خطأً، وصوابُه أن تُفتح(٤).

(١) قطرب، الفرق في اللغة، ١٧١.

(٢) الأندلسي، أبو حيان، ارتشاف الضرب، ٥/ ٢٣١٢.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، (أجد) ٣/ ٧٠.

(٤) المصدر السابق، لسان العرب، (قدم) ١٢/ ٤٦٧.

المحورُ الثالثُ: دلالةُ التصويتات واستعمالها

إنَّ ما يمكنُ قولُه ابتداءً هو أنَّ ألفاظَ التصويتِ عبارةٌ عن نمطٍ خاصٍّ من الخطاب أو الاستعمال اللغويّ، يُرادُ من كلِّ لفظٍ من ألفاظه أنْ يختزلَ المحتوى الدلاليَّ للجمل النحويّة المستعملة في الخطاب الذي يُتّخذُ أداةً للتفاهم بين الناس، ويمكنُ له أنْ يُوظّفَ توظيفاً بلاغياً، فألفاظ التصويت تكوِّنُ حقلاً واحداً في معجم اللُّغة لها دلالاتٌ محدودةٌ جدّاً، واستعمالاتٌ مقصورةٌ على أنماط من الحيوان الذي عرفه العربُ أو أفادوا منه في مأكلِهم ومشربهِم، وانتفعوا به في حربهم وسلمهم.

ويوضّح المرويُّ من هذه التصويتات أنَّ دلالتها واستعمالها لم تجاوزْ واحداً من الآتي بيانُهُ:

١- الزّجر

الزجرُ في اللُّغةِ الانتهارُ، يُقال: زجرتُ البعيرَ حتى مضى، وزجرتُ فلاناً عن الشيءِ[١].

وتأسيساً على أنَّ المقصود من التصويتات هو انتهارُ الحيوان فإنَّ بعضَ القدماء قد عدَّ التصويتاتِ كلَّها زجراً على نحوِ ما فعل ابنُ جني في كتابه (الزجر) الذي أشار إليه في كتابه: الخصائص[٢]. فكأنَّ دلالة ألفاظ التصويت محصورةٌ في الزّجر بغض الطرف عن اختلافها، واختلافِ السياق الذي تُقال فيه.

ويستعمل بعضُ القدماءِ دلالة (التّوريع) مُرادفةً لمعنى الزَّجر، ويعني التّوريع في اللغة الكفَّ والمنعَ، يُقال: ورّع الفرسَ بمعنى حبسه بلجامه. وذكر قطرب مثالاً على التوريع بالتصويت، وهو قولهم: داهْ في توريع الإبل[٣].

---

(١) ابن فارس، مقاييس اللغة (زجر) ٣/ ٤٧.

(٢) ابن جنّي، الخصائص، ٣/ ٢٣٤.

(٣) ابن منظور، لسان العرب (ورع) ٨/ ٣٨٩، وينظر: قطرب، الفرق في اللغة، ١٧٥.

وثمةَ مَنْ اتّسع في دلالةِ التصويتاتِ فرأى أنها زجرٌ ودعاءٌ، أو زجرُ الحيوان عن شيءٍ وإقدامه على شيءٍ(١).

٢- الدُّعاء

المعنى اللُّغويُّ للدعاء هو المناداةُ والصِّياحُ، يُقال: دعوتُ فلاناً بمعنى صِحتُ به واستدعيتُه(٢).

ويظهر أنَّ ثمةَ فرقاً بين تصويتاتِ الزجر وتصويتاتِ الدّعاءِ، فالزجرُ يُراد به طردُ الحيوان وتقريعُهُ، وربّما كانوا يرفعون أصواتهم في زجر الحيوان بمصاحبة ذلك لضربه، وأمَّا الدعاء أو طلب الإقبال فيصاحبُه إيناس الحيوان وحثّه برفقٍ دون ضربٍ وانتهار، ولعلّ ذلك ما كانوا يسمونه (الإشلاء) ففي نُقول ابن منظور عن علماء اللُّغةِ ما يشير إلى أنَّ الإشلاء هو دعاء الكلبِ بالتصويت (قِرْقُوسْ) وغيرهِ ويُسمى ذلك القَرْقَسَة(٣)، أو أنَّ إشلاءه يكونُ بإغرائه على الصّيد بتسليطه على أشلاء الصيد وأعضائه. وقد ذكر أنَّ الإشلاء للشاةِ والناقة يتمُّ بدعائها بأسمائها لتُحلبَ، وفي روايةٍ أُخرى أنَّ إشلاءَ الدّابة يعني أن تُريها المِخلاة لتأتي صاحبها(٤).

وقد رأينا شيئاً من هذا الإشلاءِ في لهجاتِ البادية الأردنية، فالكلب يُصوّت له أولاً باسمه، ومن ثَمَّ يُشلى بقذف الحجارة ليتبعها حيث يكون الصيد. وإشلاء الغنم والمعز يكون أولاً إما بتصويتها المعروف وهو (يا حايْ) أو بمناداة واحدة منها باسمها، ومن ثمَّ ينثرُ الراعي لها العشبَ، أو أوراقَ الشجر، أو أيّ شيءٍ من العلفِ بمرأى منها.

(١) ابن فارس، الصاحبي، ٦٢، الأندلسيّ، أبو حيان، ارتشاف الضرب، ٥/٢٣١٢، الأشموني، منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، ٣/٣٨٠.

(٢) ابن منظور، لسان العرب (دعا) ١٤/٢٥٨.

(٣) المصدر السابق، (شلا) ١٤/٤٤٣، ٤٤٤.

(٤) المصدر السابق، (شلا) ١٤/٤٤٣، ٤٤٤.

ونرى أنَّ هذا الإشلاء هو نمطٌ خاصٌّ من الدعاء، فقد يُدعى الحيوان دون إشلاء له، ومن ذلك ما يدعون به التيس للسفاد بقولهم: حُؤْ أو خُؤْ، ويدعون الغنم للماء بقولهم: دِرْ أو دَرْ، ويدعون الجحش ليلحق بصاحبه بقولهم: عَوْهِ(١).

والدعاءُ الذي لا يصاحبهُ الإشلاءُ هو مجردُ طلبٍ لإقبال الحيوان على شيءٍ محمودٍ فعلُهُ، كدعاءِ الإبلِ للماءِ بقولهم: جَوْتَ جوتَ بفتح التاء أو بكسرها، وقد يكونُ الدعاء هذا لمجرد الإقبال دون تصريحٍ بنوع الشيء الذي تُدعى إليه، على نحوِ قولهم: داعْ داعْ في دعاء الغنم والمعز(٢).

٣- التّسكين

للجذر اللغويّ المؤلَّف من (السينِ والكاف والنون) أصلٌ واحدٌ مُطَّرد يدلُّ ـ عند ابن فارس ـ على خلافِ الاضطراب والحركة(٣).

وأكثرُ ما يميز تصويتات التسكين عن غيرها أنَّها تُقال في سياقات تقتضي عدم نفورِ الحيوان ممّا يرادُ أن يُندبَ لفعله هو، أو فعلِ الإنسانِ به؛ وقد احتاجوا إلى تسكين الناقة عند حلبها أو طلبهم إدرار الحليب بالتصويت: بُسٌّ، وذُكر أنَّ هذا التسكين يكونُ بالشفتينِ دون اللِّسان(٤). وتُستفادُ دلالة التسكين ـ أحياناً ـ من شروح القدماء لهذه الدلالة، ومن ذلك قولُ الخليل: "يُقالُ للعَنزِ عند الحليب: جِطِحْ، أي قُرّي فتقرَّ"(٥).

واحتاجوا ـ أيضاً ـ إلى تسكين أنثى الحيوان لدنوِّ الفحلِ وتمكينه منها عند

(١) الخليل، العين (عوه) ٢/١٦٩، قطرب، الفرق في اللغة، ١٨٣، وفي منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، ٣/٣٨٢: أنهم يستعملون التصويت (عدْه) للجحش، وهذا تحريف؛ لأن المعروف الشائع هو (عَوْهِ).

(٢) قطرب، الفرق في اللغة، ١٨١، ابن فارس، مقاييس اللغة (جوت) ١/٤٩١، ٤٩٢، الأشموني، منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، ٣/٣٨٢.

(٣) ابن فارس، مقاييس اللُّغة (سكن) ٣/٨٨.

(٤) ابن دريد، جمهرة اللغة (بس) ١/٦٩، ابن منظور، لسان العرب (بس) ٦/٢٧، ٢٨.

(٥) الخليل، العين (جطح) ٣/٧.

الضِّراب، ومنه قولُهم: هَلا هَلا في تسكين الفرس الأنثى. ويُصار إلى تسكين صغار الحيواناتِ، لأنها أكثر عرضةً للنفور من كبارها، من نحو تسكين صغار الإبل بالتصويتِ، هِدَعْ، وتُسكّن الأنثى من أولاد المَعَز بقولهم: هَداعِ ودَهاعِ(١).

واصطنعوا تصويتات لتسكين الحيوان غيرِ المروَّضِ من السِّباع، فبعض الرواياتِ تشير إلى استعمالِهم التصويت: جَهْ جَهْ أو جاهِ لتسكين الأسد والذئب(٢).

٤- الحُداء

الحُداء أو الحِداء في معجم اللغةِ عبارةٌ عن سوقِ الإبل والغناءِ لها، والحادي لها هو التابعُ لها خلْفها(٣). ويُفهم من هذا أنَّ الحداءَ شعرٌ مُغنّى لحثِّ الإبل وسوقها، وأنّه لا يكون لغير الإبل.

وقد اشتمل كتابُ قطربٍ (الفرق في اللُّغة) على جملة من التصويتات الحُداويّةِ، من نحو قولهم: ياجْ وأياجِجْ الواردينِ في قول بنِ جَندلٍ الطُّهوي:

بكلِّ ما حُورٍ مُلينٍ حاجِجْ

مـن قبلِ ياجٍ وأيا أيا جِج

وقولهم: أياياهْ ويايَهْ الواردين في قول الراجز:

زعمتِ أنْ لا أُحسنُ الحُدايَهْ

فيـا يَهِ أيـا يـاهِ أيا يَهْ

ونقل قطرب عن أبي سَلْم الرَّبَعيِّ أنَّهم يقولون لها ـ أيضا ـ في الحُداء: هَيْديا، بيد أنَّ قطرباً ذكر أنَّهم يقولون كذلك: هاديا، ومن ثَمَّ روى الرَّجز المشتمل على (هَيْد) دون (يا) على النحو:

(١) ابن يعيش، شرح المفصّل، ٢/٢٤٣، ٢٤٤، ابن منظور، لسان العرب (هدع) ٨/٣٦٨.

(٢) ابن منظور، لسان العرب (جهجه) ١٣/٤٨٦، الأشموني، منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، ٣/٣٨١.

(٣) ابن منظور، لسان العرب (حدا) ١٤/١٦٨.

إذا حَـداهُنَّ بهيدٍ هيدِ
صَفَحْنَ بالإزارِ للخدودِ

وقد وسم التصويت (هِيسي): زجرَ التسيير في قول الراجز:

إحدى لياليكِ فهيسي هِيسى
لا تطمعي عندي بالتعريسِ(١)

وأمّا وقوع التصويتاتِ ـ على اختلافِ أنواعها ـ محَكيّةً في الشّعر فهو أوسعُ من أن يُحاطَ به، وقد أورد منه ابنُ يعيش الكثير، كقول الشاعر(٢):

حتـى حُدَوْناها بهيدَ وهَلا
حتى يُرى أسفَلُها صار علا

ويتّضحُ ممّا سبق أنَّ لهذا الحقل جملةً من السّماتِ الدلالية والاستعمالية واللُّغويّة نوجزُها على النّحو الآتي:

١- توسُّع اللّهجات في استعمال التصويتات

يبيّنُ هذا التوسّعَ اعتباراتٌ قائمةٌ على أنَّ المخاطَب بها هو الحيوان الأعجم، ويظهر أنَّ هذا الاعتبار هو ما دفع الناطقين إلى التوسُّع في استعمال التصويتاتِ ومخاطبة أنواع مُختلفة منه بتصويت واحدٍ، ومن هذا استعمالُهم التصويت: حِي أو حَيْ في تسكين الحمار وإيقافه، واستُعمل بزيادة الهاء على النحو: حَيْهِ في سوقِ الحمار أيضاً، ورُوي استعمالُ الفعل المشتقِّ من هذه التصويتاتِ في زجر المَعَز والغنم في قول امرى القيس(٣):

قـومٌ يُحاحـونَ بالبهـائمِ ونِسْوانٌ قِصارٌ كهيئةِ الحَجَلِ

ويَقترن بتوسُّعِ اللَّهجات القديمة في استعمالِ التصويتاتِ مسألتان، إحداهما:

(١) ينظر في هذه الأشعار: قطرب، الفرق في اللغة، ١٧٦-١٧٩.

(٢) ابن يعيش، شرح المفصل، ٢/٢٤٣-٢٤٩.

(٣) قطرب، الفرق في اللغة، ١٧٢، ١٧٣، ١٨١، ابن سيده، المخصص، ٤/١٢.

عدمُ اختلافِ هذه اللهجات في ألفاظِ التصويت، فلا تكاد مظانُّ اللغة تذكر شيئاً من الخلافِ بين هذه اللهجات، إلّا ما رُوي في ألفاظٍ قليلةٍ من نحو زجر بعض العرب من قيس للحمار عند النّهيق بقولهم: زَعَرَّ زَعَرَّ، والمطّردُ الشائع في اللهجات هو زجرهم إيّاه بالتصويت: زِرْ زِرْ[1].

والثانيةُ: ما يُلحظ من كثرةِ التصويتات المستعملة للإبلِ والمَعَز والغنم والخيل والحمير، يلي ذلك في الكثرة التصويتات المستعملة في الكلاب والبقر والسِّباع على اختلافِ أنواعها، وهذا ما يمكن تفسيرُه بكثرة انتفاعهم من الإبل وغيرها في مواطنَ مختلفةٍ، وانتفاعهم من الكلاب والبقر والسِّباع بمقدار أقَلَّ.

بيد أنَّه لا يمكن الزعمُ بأنَّ اللَّهجات القديمة لم تضيّقْ استعمالَ التصويتاتِ، فالظاهرُ أنَّ هذه الدلالةَ والاستعمال كانت تتطور من العموم إلى الخصوص على النحو الآتي:

٢- تخصيص دلالة التصويتاتِ واستعمالها

ما يؤدي إلى تخصيص الدلالة والاستعمال يقوم على جملة من الأسباب، منها: ميزُ تصويت الحيوان الصغير عن الكبير، فقد وضعوا التصويت (دَعْ) لزجر الغنم صغارها وكبارها، ولكنهم احتاجوا إلى الميز بينهما، فصاروا إلى وضع التصويت (حِكَحْ) لزجر الجدي على وجه الخصوص، وكذا الحال في ميزهم الكبيرَ المسنَّ منها، على نحو زجر الحمار المسنِّ بالتصويت قَلَخْ، والكلب المسنّ بالتصويت: هِي وَيْلكَ[2]. أو يكون التخصيصُ بسببٍ من رغبتهم في مَيْزِ مؤنث الحيوان من مذكّره، ومن ذلك استعمالهم التصويت: أُهِيبْ في الفرس الأنثى لتقومَ، واستعملوا التصويت: حَلْ لزجر الناقة[3]. واحتاجوا إلى ميز عموم تصويتاتِ

(١) قطرب، الفرق في اللغة، ١٧٢، ١٧٣.

(٢) الخليل، العين (قلخ) ٤/ ١٥٢، قطرب، الفرق في اللغة، ١٨٠، ١٨٣.

(٣) قطرب، الفرق في اللغة، ١٧٣، ١٧٤.

الحيوان عن الزجر المستعمل للإنسان، ففي حالات مختلفة كانت التصويتاتُ مشتركةً بين الحيوان الأعجم والناطق، ومن ذلك قولهم: هَخْ ودَعْ، ولَعْ وعَلْ وإِي[1].

٣- كثرة استعمال التصويتات في التعبير الفنيّ

وأكثر ما ناسبُ هذه الاستعمال هو شعرُ الرّجزِ والحُداءِ، وقد ذكرنا لذلك شواهدَه فيما سبق. وأما الاستعمالُ النثريُّ لها فيظهرُ في الأمثالِ الفصيحةِ، من نحو استعمالِهم زجر الإبل (هيد) في مثلهم: "أتاهم فما قالوا له هَيْدَ، أي ما سألوه عن حاله، وقولهم: "إذا وَقف الحمار على الرُّدهةِ فلا تقلْ له سأْ"[2].

وروى قطربٌ أحدَ الأمثالِ بقوله: "وقالوا أيضاً: حَيْهْ يا حمار وفي الزّجرِ له، وفي مَثَلٍ للعَرب: "حَيْهْ حماري وحمار صاحبي" وحِيهْ بكسر الحاء"[3].

٤- السماتُ اللُّغوية (الصوتية والاشتقاقيّة)

ذكرنا في مقدمةِ البحثِ أنَّ ألفاظَ التصويت لم تُجمع في مؤلَّفٍ واحد قديم، بل تفرّقتْ في الجذور المعجميّة، وروي بعضُها في كتب (الفرق) وبعض مظانِّ النّحو ومعجمات المعاني، فلهذا السببِ ولغيرِه لا يُستطاعُ درسُها وبيانُ السماتِ الدلاليّة واللُّغويّة المشتركة فيها إلا بعد جمعِها وتصنيفِها.

وقد اتّضح ـ بعد ذلك ـ أنّ المجموعَ منها فيه كثيرٌ من الخصائصِ والسماتِ اللغويّةِ المشتركةِ، وهذا الكثيرُ يفتقرُ إلى تناولٍ في مبحثين اثنين، يتناول الأوّلُ القضايا الصوتية في التصويتاتِ، ويتناولُ الثاني أبرزَ المشتقاتِ من التصويتات، وهي الأفعال، ولهذه الغاية أفردنا المبحثين الآتيين.

---

(١) المصدر السابق، ١٦٧-١٧٠.

(٢) ابن يعيش، شرح المفصل، ٢/ ٢٤٤، ٢٤٩. والرُّدهة: النُّقرة في الصخر يُستنقعُ فيها ماءُ السماء. والمعنى: قرّب الحمار من الماء فهو يشرب ولا حاجة إلى أن تدعوه إلى الشرب.

(٣) قطرب، الفرق في اللغة، ١٧١.

المبحث الثّاني: المسائلُ الصوتية في بنية التصويتات

يشتمل هذا المبحثُ على محورين رئيسين، يدرسُ أحدُهما المسائلَ الصوتية في البنية الحركيّة للتصويتات، ويدرسُ الثاني المسائلَ الصّوتية في الأصواتِ الصامتةِ للتصويتات، ففي كلِّ محورٍ كثيرٌ من المسائلِ الصّوتية التي تبيِّن التطوُّر اللُّغويَّ الّذي تعاقبَ على هذه التصويتاتِ.

المحور الأوّل: المسائل الصّوتية في البنية الحركيّة

يتناول هذا المحورُ إشباعَ الحركات القصيرة وتقصيرَ الحركات الطويلة، وأثرَ الوقف في بنية التصويتات الحركيّة، زيادةً على أثرِ ما يُسمّى الحركات المزدوجة في بنية التصويتات وتطورها.

١- إشباعُ الحركات القصيرة

عرف اللغويون القدماء مسألةَ إشباع الحركات القصيرة ونشوء أصوات المدِّ الطويلة من هذا الإشباع، وأنَّ هذه الحركاتِ جزءٌ من أصواتِ المدِّ الطويلة، فالخليلُ يبيِّن أنَّ الياء قد "خُلقت من الكسرة." ويذكرُ سيبويهِ أنَّ: "الفتحةَ من الألف، والكسرة من الياء، والضمّة من الواو." وقد عبّر ابنُ جنّي عن إشباعِ الحركات القصيرة بالمطلِ والإنشاء زيادة على الإشباع، وذكر أمثلةً توضح هذا الإشباع من نحوِ قولهم في إشباع الفتحة: يَنْباعُ في الفعل: يَنْبَعُ، وفي إشباع الكسرة ذكر قولهم: الصَّياريف في: الصيارِف، ومن إشباع الضمة ذكر الفعل: أنْظُورُ في: أنْظُرُ(١).

وخلصَ بعضُ المتأخرين إلى أنَّ: "وزن الحركة ـ في التحقيق ـ نصفُ الحرف المتولِّد عنها"(٢). وجاءت آراءُ بعض الباحثين المحدثين في أصوات العربيّة موافقة

(١) الخليل، العين، (يعط) ٢/٢١٢، سيبويه، الكتاب، ٤/٢٤٢، ابن جنّي، الخصائص، ٣/١٢٣-١٢٦.

(٢) القسطلاني، شهاب الدين، لطائف الإشارات لفنون القراءات، ١/١٧٨.

لآراء القدماء، فقد ذكر رمضان عبد التواب الفرقَ بين الحركاتِ وأصوات المد الطويلة بقوله: "الفرق بين الحركات وحروف المدِّ ليس إلاّ فرقاً في الكميةِ والزمنِ الّذي يستغرقُه نطقُ كلِّ واحدٍ منهما، فإنَّك تقول: (ضَرَبَ) ثمَّ تطيلُ الزمنَ الذي تستغرقه في نطق الفتحة بعد الضاد، فتصير الكلمة: (ضارب) ومثل ذلك في (ضُربَ) المبني للمجهول و(ضوربَ) و(مساكِن) و(مساكين) وأشباه ذلك"(١).

وأمّا أمثلة إشباع هذه الحركات في التصويتات فقد جاءت على النَّحو الآتي:

(أ) إشباع الفتحة القصيرة

ذكر ابنُ يعيشَ مثالاً واحداً لإشباعها في التصويت: (فاعْ) المرويِّ في زجر الغنم بقوله: "وقالوا: (فاعْ) والمشهورُ: (فَعْ) فعلى ذلك تكون الألف إشباعاً عن فتحة الفاء"(٢).

ومن الأمثلة الّتي نرجِّح نشأتها من إشباع الفتحة قولُهم: (هَبْ وهَاب) في زجر الفرس والحمار و: (دَعْ وداعِ) في زجر الغنم أو زجر صغارها، و(هَلْ وهَلَ وهَلا) في زجر الخيل، و(حَلْ وحَلا) في زجر الناقة أو عموم الإبل، ويظهر أنَّهم كانوا يستعملون التصويت: (حَلَ) الذي تُشبع فتحته القصيرة على النحو المذكور في التصويت (حلا) وإن لم يذكر القدماء ذلك، و(عاجِ) في زجر الإبل أو الناقة على وجه الخصوص، ومن المرجَّحِ أنَّهم كانوا يستعملون التصويت (عَجْ) أيضاً؛ لروايتهم إياه بألفِ المدِّ الطويلة(٣).

(ب) إشباع الكسرة القصيرة

جاءت أمثلةُ إشباعِ الكسرة القصيرة في بعض التصويتات من نحوِ قولهم:

(١) عبد التواب، رمضان، فصول في فقه العربية، ٤٠٧.

(٢) ابن يعيش، شرح المفصل، ٢/ ٢٤٨.

(٣) ينظر: الخليل، العين، (دع) ١/ ٨١، قطرب، الفرق في اللغة، ١٧٤، ١٨٢، ١٨٣، الأندلسي، أبوحيان، ارتشاف الضرب، ٥/ ٢٣١٢.

(هِبي) و (أُهِيْبْ) في زجر الفرس أو الحمار[١]. وقد ذكرنا إشباعَ فتحة التصويت (هَبْ) على النحو: (هابِ) ولهذا نرجّحُ أنّ التصويت: (هَبْ) كان ينطق بكسر الهاء أيضاً، ومنه ينشأ التصويت (أُهِيبْ) المشتمل على ياء المدِّ الطويلة، وليست الهمزة فيه إلا إقحاماً ولهذا الإقحامِ نظائر في تصويتات مختلفة. ومن التصويت (هِبْ) الذي كان ينطق بكسرِ الهاء على ما رجّحنا ينشأُ التصويتُ: (هِبي) عن طريق مماثلة الباء الساكنة لكسرة الهاء على النحو: (هِبِ) وإشباع هذه الكسرة بعد ذلك ونشوء الياء المديّة الطويلة: (هِبي). ويظهرُ هذا الإشباعُ -أيضاً- في التصويتين: (حَرِّ وحَرّي) الواردين في قول قطرب: "وقالوا في الحمار ... حَرِّي يا حمارُ، وحرِّ يا حمارُ، وقال الراجز:

قد تركتْ ساهٍ وقالتْ حرِّي
شمطاءُ جاءتْ من أعالي البَرِّ"[٢]

وإشباعُ كسرة التصويت أدّى إلى موافقته فعلاً مشتقاً من (التّحرّي) يقول أبو حيان: "وقال قطرب: وقال بعضهم (حَرِّ) فعلٌ وتثنية (حَرِّيا) تجعلُه من التحرِّي، وهو القصد، وقال بعضهُم: هي زجرةٌ لا تُثنّى"[٣].

وما يُسمع في لهجات البادية الأردنية يعزِّز كون التصويت السابق زجراً لا علاقة له بالاشتقاق من (التحري) ففي هذه اللهجات يزجرون الحمار بقولهم: حَرْ. وكلّ ما يُقصد به الزجر لا غير، وقد يكون اشتقاق التصويت (حرّ) متأتيّاً من الاسم (حمار) بعد إسقاط الميم والألف منه!

وأمّا أنَّ قطرباً قد ذكر اشتقاق هذا الفعل من (التّحري) عن بعض العلماء فذلك لم يثبت في النصِّ الذي نقلناه من كتابه (الفرق في اللغة) فلعلّ أبا حيان كان يعتمد في نقله عن قطرب على غير النسخة التي حُقِّقَ عليها كتابُهُ (الفرق في اللُّغة)!

(١) ابن سيده، المخصص، ٤/ ١٢، الأندلسي، أبو حيان، ارتشاف الضرب، ٥/ ٢٣١٥.

(٢) قطرب، الفرق في اللغة، ١٧١، وينظر: الأصمعي، كتاب الفرق، ١٠٨.

(٣) الأندلسي، أبو حيان، ارتشاف الضرب، ٥/ ٢٣١٣.

وذكروا في التصويت للإبل أو الناقة: (هِجْ وهَجْ) لتسيير، ومن ثَمَّ ذكروا تصويتاتٍ من نمط: (هِيجِ) و(هِيجي) للغاية نفسها، وقدر ورد التصويت بإشباع الكسرة القصيرة في قول قطرب: "وقال ذو الرُّمة:

أمْرقتُ من جَوْرها أعجازَ ناجيةٍ تنجو إذا قال حادينا لها: هيجي

والقوافي مجرورة، وكأنّه ضربٌ من الحُداءِ، وأراد: هيجي من هاج يهيجُ"(١).

ورواية البيت في ديوان ذي الرّمة تخالف ما ذكره قطربٌ، فقد جاء على النحو:

أمْرَقْتُ من جَوْزِه أعناقَ ناجيةٍ تنجو إذا قال حاديها لها هِيجِ

فالمذكور: (جَوزه) بدلاً من: (جَوْرِه) و(حاديها) بدلاً من: (حادينا) و(هِيجِ) بدلاً من: (هيجي). وذكره الخليلُ بروايتين، إحداهما: (هيجي) والثانية: (هيجِ)(٢).

وإذا استثنينا ما ذكر قطرب من كون (هيجي) فعلاً أمكن القول: إن التصويت: (هيجي) عبارة عن إشباع للكسرة القصيرة من الأصل: (هِجْ) على النحّو الآتي:

هِجْ (الأصل) ← هيجْ (بإشباع كسرة الهاء) ← هيجِ (بكسر الجيم لمماثلتها للياء المديّة الطويلة) ← هيجي (بإشباع كسرة المماثلة ونشوءِ الياء المديّة الطويلة).

والحقيقُ بالذكر أنَّ قطرباً قد ذكر التصويت (هيسي) في زجر الإبل للتسيير أيضاً، يقول: "وقالوا: هِيسي هيسي زجرُ التّسيير، وقال الراجز:

إحدى لياليكِ فهِيسي هِيسي
لا تَطْمعي عندي بالتَّعْريسِ"(٣)

(١) قطرب، الفرق في اللغة، ١٧٨، ١٧٩.

(٢) ذو الرّمة، ديوان ذي الرّمة، ٤٢، وينظر: الخليل، العين، (هج) ٣/٣٤٣، (هيج) ٤/٦٧.

(٣) قطرب، الفرق في اللغة، ١٧٩، والرجز غير منسوب في معجم (العين) (هيس) ٤/٧٣، وذكر ابن دُريد في جمهرة اللغة (جدس) ١/٤٤٧ أنّه شعر قديم لا يُعرف قائله.

ومن التصويتات التي نشأت من مطل الكسرة القصيرة وإشباعها قولهم: (إِيخْ) في زجر الجمل أو الناقة عند الإبراك، أو الضِّراب، والدليلُ على ذلك استعمالهم التصويت: إِخْ للمعنى نفسه. وبالطريقةِ نفسها ينشأ التصويت (هِيخْ) من (هِخْ) وكلاهما مستعملٌ في دعاءِ الناقة للضّراب أو للإبراك(١).

(ج) إشباعُ الضمة القصيرة

ما أتى من تصويتات وفاقاً لهذا الإشباع لا يتجاوزُ المثالين، وهو ما نلمحُه في دعاءِ الكلب أو الجَرْو الصغير بالتصويت: (قوسْ) لروايتهم إياه على الصورة المشتملة على الضمة القصيرة: (قُسْ). وفي (التكملة) للصّغاني (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م) ذكر أنَّهم يزجرون الغنم والبقر بقولهم: أَوْسْ أَوْسْ. ويظهر أنَّ (الواو) عبارة عن إشباع للضمّة القصيرة، إذ ذكر الأصمعيُّ أنّهم يزجرون الشاة بقولهم: أُسْ أُسْ، فمن المحتمل ـ تأسيساً على ذلك ـ أنَّ الضَّبْط الصحيح للتصويت الذي ذكره الصّغانيُّ هو: أُوْسْ أُوْسْ، بضم الهمزة لا بفتحها(٢). على عادة القدماء في تحريك ما قبل أصوات المد الطويلة بحركات من جنسها.

ونخلصُ من درس إشباع الحركات القصيرة إلى النتائج الآتية:

١- أنَّ إشباع الحركات القصيرة يناسبُ التصويت للحيوان لما يفتقر إليه من مدٍّ الصوت.

٢- أنَّ إشباعَ الكسرةِ وتحوُّلَها إلى ياء مديّة طويلة قد صيّر بعضَ التصويتاتِ موافقةً لبعض أفعال العربّية، وهو ما دفع بعضَ القدماءِ إلى عدِّها أفعالاً، وهذا غيرُ ملحوظ فيما ينشأُ من إشباع الفتحة والضمّة القصيرتين.

٣- أنَّ القدماء لم يُعنوا بإشباع الحركات القصيرة في التصويتات باستثناء ما ذكره ابنُ يعيش من إشباع فتحة التصويت (فَعْ) وتحوُّلِه إلى (فاعْ).

(١) قطرب، الفرق في اللغة، ١٧٧، وينظر: ابن يعيش، شرح المفصل، ٢/ ٢٤٨، ابن منظور، لسان العرب، (نخخ) ٣/ ٦٠.

(٢) الاصمعي، كتاب الفرق، ١٠٩، الصَّغاني، التكملة، (أوس) ٣/ ٣٢٠.

٢- تقصيرُ الحركات الطويلة: (أصوات المدِّ الطّويلة)

ظهر هذا التقصيرُ في أنماط ثلاثة من التصويتات خاصة بألف المدِّ الطويلة دون الواو والياء المديتين، على النّحو الآتي:

- ياهِ ويَهْياهِ، استعمل هذان التصويتان دعاءً للإبل، وشاهدُ استعمالهما لهذه الغاية قول ذي الرُّمة[١]:

ينـــادي بِيَهْياهٍ ويـــاهٍ كأنّـــه صُوَيتُ الرُّويعي ضلَّ بالليلِ صاحبُهْ

ويظهرُ أنَّ التصويتين عبارة عن تصويت واحدٍ مُكرّرٍ مكَوّنٍ من (يا) النداء وبعدها الهاءُ، على النّحو: ياهِ ياهِ، ومن ثَمَّ قصِّرت ألفُ المدِّ الطويلة في الأولِ فصار: يَهْ ياهِ، إلا أنَّ الهاء كُتبت موصولةً بالياء على النَّحو: (يَهْياهِ).

وفي معجم العين أنَّهم يزجرون الإبل - أيضاً - بقولهم: يا هَياه، إلا أنَّ بعض العرب يكره هذا التصويت؛ لأنّ (هَياه) من أسماء الشّياطين[٢].

والظاهر أنَّ هذا التصويت لا علاقة له بأسماء الشياطين فهو عبارة عن حرف النداء (يا) وبعدهُ الهاء، كُرِّر (يا) مرتين على النحو: (ياهْ) (ياهْ) إلا أنَّ الهاء الأولى كُتبت موصولةً بالياء الثانية هكذا: يا هياه، فظُنَّ بعد ذلك أنَّ (هياه) اسمٌ من أسماء الشياطين.

وأما تفسيرُ هذه (الهاء) بعد حرف النداء فلعل استجلابها كان بسبب الرغبةِ في إغلاق المقطع الطويل المفتوح المكوّن من الياء وألفِ المدّ الطويلة (يا) وتحويله إلى المقطع الطويل المغلق (ياهْ)، وهو ما يناسب الوقف على هذا التصويت، وهذه الهاء هي نفسُها التي يسميها القدماء هاء السّكت.

- ياعِ ويَعْياعِ، ذكر هذين التصويتين ابنُ دُريد في معكوس (عَيْعيَ) وبَين

(١) ابن منظور، لسان العرب، (يهيه) ١٣ / ٥٦٤، ٥٦٥.

(٢) الخليل، العين (ياه) ٤ / ١٠٦، ١٠٧.

أنهما عبارة عن حكايةٍ لأصوات القوم إذا تداعوا، فقالوا: يَعْياعِ أو ياعِ، وذكر ـ بعد ذلك ـ ما يشيرُ إلى استعمالهما في التصويت للغنم، يقول: "ويُقال: هو يُعاعي بالغنم ويحاحي بها، وهو زجره إياها، وأُنْشِدَ للفرزدق:

وإنَّ ثيابي من ثيابِ محرِّقٍ ولم استعرْها من مُعاعٍ وناعقِ"(١)

وذكر ابنُ منظور من معاني (اليَعْيعة واليَعْياع): أنَّها من أفعالِ الصّبيان، إذا رمى أحدُهم الشيءَ إلى الآخر، وقال: يَعْ، زيادةً على المعاني التي ذكرها ابنُ دُريد(٢).

وما حدث في هذا التصويت لا يختلفُ عن سابقه، فقد أُشبعت فتحة التصويت (يَعْ) فنشأت ألفُ المدِّ الطويلة: (ياعِ) ومن ثَمَّ كُرِّر التصويت بتقصير هذه الألف مرّة وببقائها على حالها مرّةً ثانية على النحو: (يَعْ) (ياعِ) وكُتبت العين موصولةً بالياء هكذا: (يَعْياعِ).

والحقيق بالذكر أنَّ: (يَعْ) و(ياعِ) و(يَعْياعِ) تستعمل في لهجات البادية الأردنية تصويتاً لطلب إقبال الغنم والمعز، زيادةً على سماعِها في ألعاب الصّبيان أيضاً.

– يَعاطِ وياعاطِ، يُستعمل هذانِ التصويتانِ في زجر الذئب أو الإبل، ومنه قول جساسِ بنِ قطيب: (من الرّجز)

تنجو إذا قيل لها يَعاطِ

وذكر ابنُ منظور أنّ الأصلَ: (عاطِ) زيدت قبله (يا) ومن ثمَّ حُذفت الألف تخفيفاً(٣). وتفسيرُ ما حدث في هذين التصويتين موافقٌ لما ذكر ابنُ منظور، إلاّ أنَّ ألف المدّ الطويلة لم تُحذف، بل قصِّرت فصارت فتحةً قصيرة.

وما دفع القدماءَ للقول بحذف الحركات الطويلة في مواضع مشابهة لما ذكرنا أنَّهم اعتمدوا على الخطِّ والكتابة وليس على النطق، فلو نظروا إلى النطق لا إلى

(١) ابن دريد، جمهرة اللغة، (عيعي) ١/٢١٦.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، (يعيع) ٨/٤١٤.

(٣) المصدر السابق، (يعط) ٧/٤٣٤، ٤٣٥.

الخطِّ لعدّوا ـ كما يقول رمضان عبد التواب ـ الفعلَ في قولهم: لم يَدْعُ مجزوماً بتقصير الواو الطويلة بدلاً من القول بحذفها(١).

٣- أثرُ الوقف في بنية التصويتات الحركيّة

يعرِّف بعضُ القدماء الوقفَ بأنّه: "قطعُ الكلمة عمّا بعدها، أي: أنْ تسكتَ على آخرها قاصداً لذلك مختاراً لجعلها آخرَ الكلام، سواء كان بعدها كلمة، أو كانت آخر الكلام"(٢).

وقد تناول الخليلُ بنُ أحمد بعضَ الأحكام الخاصّة بالوقف على التصويتات، ومنها ما ذكرهُ بعد تناوله للتصويت للغنم بـ: داعْ أو داعٍ، بقوله: "فإنْ شئتَ جررْتَ ونوّنت، وإنْ شئتَ على توهم الوقف." ومنها ما ذكره على وجه العموم، بقوله: "كلّ شيءٍ من موقوف [الزّجر(*)] فإنّ العرب تنوّنهُ مخْفوضاً، وما كان غير موقوفٍ فعلى حركةِ صرفهِ في الوجوه كلِّها"(٣).

ومدارُ البحثِ في الوقف على التصويتات يقومُ على استقراء أثرِهِ في بنيتها الحركيّة، فالوقفُ يُغتفَرُ فيه التقاء الساكنين ـ على حدِّ رأي القدماء ـ أو يتخلّص منه على اعتبار إدراج التصويتات وعدم الوقوف عليها، وهذا ما قصده الخليلُ بقوله: "وما كان غير موقوفٍ فعلى حركة صرفهِ في الوجوه كلِّها".

ويتبدّى أثرُ الوقف في التصويتات في المسائل الآتية:

(أ) تناوُبُ الحركات في آخر التصويت

لا يختلفُ القدماءُ في أنَّ مجرّدَ تحريك آخر التصويت الذي يلتقي فيه الساكنان يكون بسبب التقاء الساكنين، ولكنَّ تخيُّرَ نمطٍ معيّن من هذه الحركات يُفسَّر بعللٍ

(١) عبد التواب، رمضان، فصول في فقه العربية، ٤٠٨.

(٢) الأستراباذي، رضي الدين، شرح شافية ابن الحاجب، ٢/ ٢٧١.

(*) في النسخة المحقّقة من (العين) الرَّجز بدل الزّجر، والصواب ما أثبتنا اقتضاءً للمعنى.

(٣) الخليل، العين، (دع) ١/ ٨١، (صه) ٣/ ٣٤٥.

صوتية، فيها كثيرٌ مما يمكن قبولهُ وموافقتهُم عليه، فممّا يطالعُ في هذا الشأن ما ذُكر في التصويتات الواردة في زجر الإبل الآتية(١):

- حَوْب، يحرّك آخره بالحركات القصيرة الثلاث، وفي علة اختيار تحريكه بالفتحة ذكر ابنُ يعيش أنّها حركة خفيفة، وأمّا اختيار الكسرة فهي الأصل في التخلُّص من هذا الالتقاء، واختيار الضمة يفسّره بإتباعها للواء قبلها، والواوُ تجري ـ هنا ـ مجرى الضمةِ القصيرة في جواز إتباع الحركات لها.

- نَخّ، تُختار الفتحة في تحريك الساكنين لعلتين ـ كما يذكر ابن يعيش ـ إحداهما: خفّة الفتحة ومناسبتها لثقل التضعيف، والثانيةُ: إتباع الفتحة لفتحة النون قبلها. وقد أجاز الأستراباذيُّ كسر آخره، زيادة على جواز تسكينه دون تعليل.

- هَيْد، يُحرّك بالفتحة لثقلِ تحريكه بالكسرة بعد الياء كما يذكر ابنُ يعيش، وذكر الأستراباذيُّ جواز تحريكه بالكسرة دون تعليل. وثمةَ تصويتاتٌ راوح تحريكُ آخرِها بين الحركات الثلاث، زيادةً على جواز إسكانه ذكر ذلك ابنُ يعيش والأستراباذيُّ.

والنمطُ الذي يراوح آخره بين التحريك بالكسرة والإسكان غالباً ما يكون قبل آخره ألف المدِّ الطويلة، من نحو قولهم: هادِ وعاجِ وهابِ وعاهِ وجاهِ في زجر الإبل، وعاءِ في زجر الغنم.

والتقاءُ الساكنين في التصويت (نخّ) صحيحٌ؛ لسكون الخاء المضاعفة في الوقفِ، ولا يُقبل هذا الالتقاء في التصويت: (هاد) لأنّ القدماء يعدّون ألف المد الطويلة والواو والياء الطويلتين أصواتاً ساكنة، وأصواتُ المدّ عبارةٌ عن حركات

(١) الأصمعي، كتاب الفرق، ١٠٨-١١٠، ابن يعيش، شرح المفصل، ٢/ ٢٤٥-٢٤٩، الأستربازي، شرح كافية ابن الحاجب، ٣/ ٤٠٤-٢٠٦

طويلة: "فما يُسمى بألف المدِّ هو في الحقيقة فتحة طويلة، وما يُسمى بياء المدِّ ليست إلاّ كسرة طويلة، وكذلك واو المدّ تُعدّ من الناحية الصوتية ضمّة طويلة"(١).

إنَّ تحريك الصامت الأخير في التصويت (هادِ) وما يشبهه سببه مقطعيٌّ، لأنَّ الوقف عليه بالسكون يعني أنّه صار عبارةً عن مقطع واحد مؤلَّفٍ من صامت وحركة طويلة وصامت (ص ح ط ص) وهو المقطع الرابع في العربيّة الذي لا يُقبل إلا بشروط، منها الوقفُ عليه. وللتخلُّص من هذا المقطع المكروه حُرِّكَ آخر هذا التصويت بالكسرة، فانقسم على مقطعين مقبولين دون شروط، المقطع الأول المؤلّف من (الهاء) وألف المد الطويلة (ها) وهو من المقاطع الثانية في العربيّة ويرمز إليه بـ (ص ح ط) أي: صامت وحركة طويلة، والمقطع الثاني المؤلف من (الدال) و(الكسرة) وهو مقطع من النوع الأوّل في العربيّة، ويتألّف من صامت وحركة قصيرة، ويُرمز إليه بـ: (ص ح ق)(٢).

ومن الجائز ـ أيضاً ـ تفسيرُ تحريك آخر التصويتات التي التقى في آخرها الساكنان ـ على وجه الحقيقة ـ من نحو: (نخّ) في ضوء فكرة تقسيم المقطع المكروه، فالوقف على هذا التصويت وما يشبهه ممّا التقى في آخره صامتان ساكنان يؤدي إلى تكوّن المقطع الخامس في العربّية ويتألّف هذا المقطعُ من صامتٍ وحركةٍ قصيرة وصامتينِ ويرمز إليه بـ: (ص ح ق ص ص) وهو مقطعٌ مقبولٌ في الوقف، إلا أنّه من المقاطع الثقيلة المكروهة، وبتحريك آخر صامت فيه ينقسم هذا المقطع على مقطعين مقبولينِ على النحو الآتي:

(١) ينظر: الخليل، عبد القادر، التشكيل الصوتي في اللغة العربيّة بحوث ودراسات، ١٨٠، ١٨١.

(٢) عبابنة، يحيى، دراسات في فقه اللغة والفنولوجيا العربيّة، ١٩، وتناول رمضان عبد التواب مسألة تقسيم المقاطع المرفوضة على مقاطع مقبولة بوسائل لغويّة مختلفة، ينظر: فصول في فقه العربيّة، ١١٩-١٩٦.

نَخْ: (ص ح ق ص) وهو مقطع من النوع الثالث، وتكوِّنُ الخاء المتحركة بالفتحة أو الكسرة (خَ) مقطعاً من النوع الأول (ص ح ق). وهذان المقطعان مقبولان في الوقف وغير الوقف على غير كراهة من العربيّة لهما.

(ب) تحريكُ أوّل الساكنين

تذكر بعضُ المصادر اللغويّة بضعةَ تصويتاتٍ يُعاينُ فيها التقاءُ الساكنين أو المقطعُ الخامس، وقد جاءت على النحو الآتي(١):

- جِحْضْ وجِحْطْ وحِجْحْ وإِجْطْ وجِزْحْ وحِنْحْ، وتدور في تلك التَصْويت لزجر الغنم والضَّأْن.

- قَلْخْ، تصويت للفحل عند الضِّراب، أو للحمار المسنِّ على وجه الخصوص.

ويظهر أنَّ اللغة قد تصرفت في هذه التصويتات للخلاص من المقطع الخامس والتقاء الساكنين من طريق تحريك الصامت الأول الساكن، بيد أنَّ تصرُّفَ اللغةِ في هذا التحريك كان واضحاً في بعض التصويتات، وخفيّاً في بعضها، ومن ذلك ما نلحظُه في روايات التصويتات السابقة على النحو الآتي(٢):

- حِجِحْ، ذكره ابنُ منظور مكسورَ الجيم.

- حِكَحْ، ذكره قطرب في زجر الجدي.

ومن منظور البحث فإنَّ التصويتين (حِجِحْ وحِكَحْ) عبارةٌ عن التصويت: (حِجْحْ) الذي التقى فيه الساكنان أو المقطع الخامس، وللخلاص من ذلك، حُرِّكت الجيم الساكنة بالكسرة لمماثلتها كسرة الحاء قبلها، وبذلك ينقسم المقطعُ الخامس على مقطعين مقبولين دون شروط: المقطعِ المؤلّفِ من (الحاء والكسرة) وهو المقطع الأول في العربيّة، والمقطع الثاني المؤلف من (الجيم المكسورة والحاء الساكنة) وهو

(١) الخليل، العين، (جزح، جطح) ٣ / ١٧١، (قلخ) ٤ / ١٥٢، قطرب الفرق في اللغة، ١٨٠. ابن سيده، المخصص، ٤ / ١٢، ابن منظور، لسان العرب، (حجج) ٢ / ٢٣٠.

(٢) ينظر: قطرب، الفرق في اللغة، ١٨٠، ابن منظور، لسان العرب (حجح) ٢ / ٢٣٠.

المقطعُ الثالث في العربيّة.

وأمّا التصويتُ (حِكَحْ) فيترجّح أنّ الكاف فيه مبدلة من الجيم، أو أنّها الجيم الخالية من التعطيش (الجيم القاهريّة)، ولعدم وجود رسم كتابيٍّ لها صورت بصورة الكاف(١).

- جِطِحْ وجِدِحْ، ذُكرا في زجر الغنم، وأجاز ابنُ سيده أن تكون الدالُ مبدلةً من الطاء أو العكس. والراجح أنَّ الدال هي المبدلة من الطاء، والسببُ في ذلك أنَّ التصويت (جِطِح) عبارة عن التصويت (جِحْطْ) الذي التقى فيه الساكنان على ما نرى، وقد قُلب قلباً مكانياً، ومن ثَمَّ حُرِّك وسطه بالكسرة إتباعاً لكسرة الجيم. وقد ذكر ابنُ منظور روايةً ثانيةً فيه بتضعيف الطاء المكسورة على النحو: (جِطِّحْ)(٢) زيادة على ما رواه ابن فارس من تضعيف الدال في التصويت (جِدِّح) الذي رجّحنا إبدال داله من الطاء، ولا ضرورة ملجئة لهذا التضعيف سوى التخلص من التقاء الساكنين والمقطع الخامس.

ومن الوارد أن تكون (الطاء) في التصويت الأصل (جِحْطْ) قد أبدلت من الضاد في التصويت (جِحْضْ) إذ لم تذكر المصادرُ ما يشيرُ إلى تحريك وسطه أو آخره، والسببُ في ذلك الإبدال صعوبة النطق بالضاد كما هو متعارف عليه لدى القدماء.

- قَلَخْ أو قِلِخْ، وتحريك وسطه بالفتحة أو بالكسرة مرويٌّ في مصادر لغويّة مختلفة(٣)، وتحريكه بهاتين الحركتين حدث بسبب التقاء الساكنين أو المقطع الخامس المكروه.

(١) ينظر في الجيم الخالية من التعطيش: موضوع الجيم المفردة والمركبة في قابل البحث.

(٢) ابن سيده، المخصص، ٤/١٢، ابن منظور، لسان العرب، (جطح) ٢/٤٢٤.

(٣) ينظر: قطرب، الفرق في اللغة، ١٧٨، ابن منظور، لسان العرب، (قلخ) ٣/٤٨، الأندلسي، أبو حيان، ارتشاف الضرب، ٥/٢٣١٦.

– جِرَحْ، ذكره قطرب في زجر المَعَز[١]، ولم تذكره مصادرُ اللغة بالراء، بل ذُكر بالزاي، ومن الراجح أنْ يكون هذا التصويت هو نفسهُ التصويت (جِزْحْ) الذي أوردناه بالتقاء الساكنين في آخره سقط نقْطُ الزاي منه.

وأما التصويتان (حِنْحْ) و(إِجْطْ) فلم نقف على تحريك آخرِهما أو وسطهما فيما عدنا إليه من مصادر لغويّة؛ فالظاهرُ أنّ اللغة قد قبلت بالتقاء الساكنين فيهما وبالمقطع الخامس، أو أنَّ بعض اللهجات كانت تنطقهما بتحريك وسطهما أو آخرهما، قياساً على بعض التصويتات المرويّة، من نحوِ قولهم: خَدْجِ في زجر الغَنَم الذي رُوي بتحريكِ آخره[٢].

وثمة ملحوظةٌ عن مَصير هذه التصويتات في اللَّهجات الدارجة، فلهجاتُ البادية الأردنية تتصرَّفُ في استعمالِ بعضِها أو تَعْدلُ عن استعمال بعضها.

فمن التّصرُّف فيها أنَّ الناطقين يسقطون بعضَ صوامتها لتحويل التصويتات إلى ثنائية مركبةٍ من صامتين اثنين، ومن ذلك قولُهم: جَحْ، في زجر الغنم أو الكبش، ويحتمل هذا التصويتُ أنْ يكونَ هو نفسه التصويت المركّب من ثلاثة صوامت: (جِحْضْ) أو (جِحْطْ) سقطت الضاد من الأول، أو سقطت الطاء من الثاني، ويحتمل أنْ يكون التصويت: حِجْحْ، بإسقاط الحاء الأولى منه. أو أنّه التصويتُ: جِزْحْ بإسقاط الزاي، ويؤيد ذلك أنّ اللهجات العربية الفصيحة قد استعملت التصويت (جَحْ) ثنائياً في زجر الضَّأن والكبش[٣]. والسِّرُ في هذا الإسقاط يكمن في التخلُّص من التقاء الساكنين أو المقطع الخامس، ومن الممكن القول ـ أيضاً ـ إنَّ كثرة دوران هذه الألفاظ على الألسنة قد أدّى إلى التخفُّفِ منها بإسقاط أحد صوامتها، وهذا ما يناسبُ لهجَة البدوِ على عمومها، يقول إبراهيم أنيس:

(١) قطرب، الفرق في اللغة، ١٨٠.

(٢) ينظر: ابن سيده، المخصص، ٤ / ١٢، ابن منظور، لسان العرب، (حنح) ٢ / ٢٤٩، ٤٣٢.

(٣) قطرب، الفرق في اللغة، ١٨٠، الأندلسي، أبو حيان، ارتشاف الضرب، ٥ / ٢٣١٤.

"تميل القبائل البدوية إلى السرعة في نطقها، وتلمُّس أيسرِ السّبل، فتدغمُ الأصواتَ بعضها في بعضٍ، وتسقطُ منها ما يكمنُ الاستغناءُ عنه دون إخلال بفهم السامع"(١).

ومن تصرف لهجات البادية في بعض التصويتات الثلاثية التي سبقت، أنّها تميل إلى تقسيم بعض التصويتات على قسمينِ في النطق، فالتصويتُ: حِجْحْ يُنطقُ بزيادة مدّة نطق كسرة الجيم؛ لتنشأ الياء المديّة الطويلة على النحو: (حِيْ/جَحْ) فلعل ذلك كان يحدث في اللّهجات الفصيحة بدليل استعمالهم التصويت (حَيْ) و(حِيْ) في زجر الغنم والضأن، زيادة على استعمال التصويت (جَحْ)(٢).

وأما عدولُ اللهجات الدارجةِ عن استعمال بعض التصويتات فيطالعُ في انعدام استعمالها التصويت (قَلَخْ) وغيره، ممّا كان يستعمل في زجر الفحل عند الضراب أو الحمار المسنِّ.

٤- أثر الحركة المزدوجة في بنية التصويتات

تُعرَّف الحركة المزدوجة: Diphthong أو صوت المدّ المركب ـ في بعض الدراسات اللغوية الحديثة ـ بأنّها: "تتابع حركةٍ وشبه حركة، أو شبه حركة وحركةٍ في مقطع واحد." أو أنّها: "التتابعُ بين صوت المدِّ ونصفِ المدِّ"(٣).

ويُقصد بالحركة في التعريف السابق: الحركة القصيرة أوالطويلة معا، وبشبه الحركة: الواو والياء عندما لا تكونان مدّين طويلين، وهو معنى كونهما نصفي مدٍّ كما ورد في التعريف الثاني.

وتقسّم الحركة المزدوجة على قسمين تأسيساً على نوع التتابع بين الحركة وشبه

(١) أنيس، إبراهيم، في اللهجات العربيّة، ١٣٢.

(٢) ابن سيده، المخصص، ٤/ ١٢، ابن منظور، لسان العرب، (وحح) ٢/ ٦٣٠.

(٣) عبابنة، يحيى، دراسات في فقه اللغة والفنولوجيا العربيّة، ١٣٢، المطلبي، غالب، في الأصوات اللغويّة، ٤٣، ٤٤.

الحركة، فإن جاءت الحركةُ: (القصيرة أو الطويلة) قبل شبه الحركة (الواو والياء)، فتسمى الحركة المزدوجة الهابطة: Falling، ومثال ذلك مجيءُ الفتحة القصيرة قبل الواو والياء في كلمتي: حَوْض وبَيْت. وأمّا إن جاءت شبه الحركة قبل الحركة: (القصيرة أو الطويلة) فتسمى ـ حينئذٍ ـ الحركة المزدوجة الصاعدة: rising، ومثالُها مجيءُ الضّمة بعد الياء في كلمة (يُسْر) والفتحة بعد الواو في كلمة (وَعَد)(١).

وأمّا أثرُ هذه الحركة في بنية الكلمة العربيّة على عمومها فيبدو من ثِقلِها في كثير من السياقات؛ لذا تميلُ اللغةُ إلى التخلُّص منها كلّما أمكنها ذلك، يقول يحيى عبابنة: "إنَّ الحركة المزدوجة وضعٌ صوتيٌّ مستثقل، وقد يكون مرفوضاً في بعض السياقات الصوتية؛ ولهذا كانت الحركة المزدوجة من أكثر السياقات عرضةً لحركات التطور اللُّغويِّ"(٢).

إنَّ استقراء التصويتات يبيِّن أنَّ الحركة المزدوجة قد انتظمت بكثرةٍ في بنية هذه التصويتات، ولعلّ هذه المسألةَ من أكثر المسائل الصوتية بروزاً في بنية التصويتات. إذ انتظمت مع الأصوات الحنجريّة (الهمزة والهاء) ومع الأصوات الحلقية (العين والحاء) ومع هذه الأصوات وبعض الأصوات اللغويّة، ويرافق هذا الانتظامَ حِراكٌ صوتي ملحوظٌ يتمثّل بسمتينِ اثنتين، إحداهما: وجود تصويتات كثيرة يترجّحُ أنّها مقلوبةٌ قلباً مكانيّاً من بعض التصويتات المشتملة على الحركة المزدوجة الهابطة، والثانية: أنّ تقارب الأصوات الحنجرية والحلقية ـ تُسمّى جميعاً الأصوات الحلقيّة عند القدماء ـ قد سمح بإبدالِ هذه الأصوات من بعضها، دون أن يذكر القدماءُ شيئاً من ذلك الإبدال.

(١) ينظر في معنى الحركة المزدوجة وأنواعها: الشايب، فوزي، أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، ٤٠٨.

(٢) عبابنة، دراسات في فقه اللغة، ١٥٣.

المجموعة الأولى: الأصوات الحنجريّة والحركة المزدوجة

١- الهمزة مع الحركة المزدوجة

من التصويتات التي اشتملت على الهمزة مع الحركة المزدوجة قولُهم:

- أَوْ المستعمل في زجر الفرس للإقدام على شيءٍ ما، والصورة المقلوبة منه تبدو من استعمالهم التصويت: (وَأْ) لزجر الغنم[١]. ويعني هذا القلب أنَّ الحركة المزدوجة الهابطة المكوّنة من فتحة الهمزة والواو (aw) قد تحوّلت إلى حركة مزدوجة صاعدة مكوّنة من الواو وبعدها الفتحة هكذا (وَ أْ): ('wa) والحركة المزدوجة الصاعدة أخفُّ نطقاً من الهابطة، وقد تتخلص اللغة من الحركة الهابطة في التصويت (أَوْ) نهائياً على النحوِ الواردِ في التصويت الآتي:

- آءُ المستعمل في زجر الخيل في العساكر كما يذكر الخليل[٢]. فما حدث ـ هنا ـ يتمثل بصعوبة الحركة المزدوجة الهابطة في التصويت الأصل (أَوْ) وللخلاص من ذلك أشبعت فتحة الهمزة فصار التصويت على النحو: (آوْ: 'aw) المكون من الحركة المزدوجة الهابطة المؤلفة من ألف المد الطويلة والواو، وهذا يعني بقاء الحركة المزدوجة الهابطة في بنية التصويت، وللخلاص منها أُبدلت الواو همزةً إبدالاً موقعيّاً هكذا: (آء: 'a)، وبذلك تخلّصت اللغةُ من الحركةِ المزدوجة الهابطة نهائياً. وقد تسلك اللغة مسلكاً آخر لتخلّص من الحركة المزدوجة في التصويت (أَوْ) على نحو ما يظهر في التصويت الآتي:

- أَيْ، تصويتٌ مستعمل في زجر الخيل والإبل؛ لتسكينها، وهو التصويت السابق (أَوْ) الذي تحوّلت فيه الحركة المزدوجة الهابطة الواويّة إلى حركة مزدوجة هابطة من النوع اليائي، أي بإبدال الواو ياءً؛ لأن الياء أخفُّ من الواو. ويُلحظ في

(١) قطرب، الفرق في اللغة، ١٨٢، الأندلسي، أبو حيان، ارتشاف الضرب، ٥/ ٢٣١٤، ٢٣١٥.

(٢) الخليل، العين، (أوا) ٨/ ٤٤٠.

الحركة المزدوجة اليائية تطورٌ مشابهٌ لما حدث في التصويت (أوْ) فثمة تصويتٌ مرويٌّ في زجر الإبل وهو (يَأْ) يبدو مقلوباً من التصويت (أَيْ) أي أنَّ الحركة المزدوجة الهابطة (أَيْ: ’ay) تتحول إلى حركة مزدوجة صاعدة (يَأْ: ’ya) بالقلب المكاني. والصورة المقلوبة (يَأْ) تُشبَعُ فيها الفتحة القصيرة ليصيرَ التصويت على النحو: (ياءْ: ’ya) وهو مستعمل ـ أيضاً ـ في دعاء المَعَز[١].

ولدينا صورةٌ أخرى للتصويت (أَيْ) مرويّة على النحو: (إِيْ) ذكرها قطرب في تسكين الإبل[٢]. وفي هذه الصورةِ احتمالان:

أحدهما: أنَّ الياء ـ هنا ـ عبارة عن الياء المديّة الطويلة التي يرسمها القدماء ساكنةً مسبوقةً بحركة من جنسها؛ وعلى هذا الاحتمال، ليس هناك أي حركة مزدوجة في هذه الصورة. والثاني: أنَّ الياء ـ هنا ـ عبارة عن الكسرة الطويلة الممالة (e) التي لا يوجد لها رسمٌ كتابيٌّ عند القدماء. ولتوضيح هذه المسألة نتوقّف عند مراحل تطور الحركة المزدوجة التي ذكرها رمضان عبد التواب في غير موضعٍ من مؤلفاته المختلفة. فقد قُسِّمت مراحلُ تطور الحركة المزدوجة على أربعِ مراحلَ على النحو الآتي[٣]:

الأولى: مرحلةُ الصِّحةِ التي تتصرّف فيها شبه الحركة (الواو والياء) تصرّف الأصوات الصحيحة في قبولها للحركات القصيرة، ويؤيد ذلك ما يذهب إليه القدماء من أنَّ أصل: (قال وباع) هو: (قَوَلَ وبَيَعَ) وأمّا في بنية التصويتات فلا نجد للواوِ والياء استعمالاً يمثّلُ مرحلةَ الصّحةِ إلا ما نرجِّح أنَّه من أخطاء الطباعة وسهو الناسخين فيما وصل إلينا من كتب اللغة، ففي كتاب (ارتشاف الضرب)

(١) ينظر: ابن دريد، جمهرة اللغة (يأيأ)، ١/٢٢٨، الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس، ١/٥٢١.

(٢) قطرب، الفرق في اللغة، ١٧٦.

(٣) ينظر: عبد التواب، رمضان، التطور اللغويّ مظاهره وعلله وقوانينه، ٧٨، ٧٩، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللُّغوي، ٢٩١، ٢٩٢.

لأبي حيَّان الأندلسيِّ ذُكر التصويت (هَيَه) المستعمل في زجر الإبل مفتوحَ الياء[١] . والذي نراه أنَّ الفتحة من ضبط الهاء الأخيرة حتى لا يلتقي ساكنان على حدِّ رأي القدماء، ورسمُها على الياء من أخطاء الطباعة أو السهو.

والثانيةُ: مرحلةُ التسكين أو ضياع الحركة، وفيها تُسكَّن الياءُ والواو، فتصبح بعضُ الأنماط الفعليّة مثل: (قَوَلَ وبَيَعَ) على نحوٍ من: (قَوْلَ وبَيْعَ) ويمثّلُ هذه المرحلة من التصويتات التي سبقت التصويتُ (أَوْ) و(أيْ) وغير ذلك على ما سيرد لاحقاً.

والثالثةُ: مرحلةُ الإمالةِ أو انكماش الحركة المزدوجة، يقولُ رمضان عبد التواب: وانكماش الأصوات المركبة المسماة باللاتينيّة: Diphthong من ظواهر السهولة والتيسير في اللغة، يتحوّل الصوتُ المركّبُ (aw') إلى ضمة طويلة مُمالة (o) في مثل نطقنا لكلمة: يُوم ونُوم وصُوم بدلاً من: يَوْم ونَوَم وصَوْم وكذلك تحوّل الصوت المركب: (ay') إلى كسرة طويلة مُمالة (e) في مثل نطقنا لكلمة: بِيت ولِيل وعِين بدلاً من: بَيْت ولَيْل وعَيْن، كلُّ ذلك سببه إيثار اللغة الانتقال من العسير إلى اليسير من الأصوات"[١]. وبمرحلة الانكماش هذه ـ بتحول الحركة المزدوجة إلى كسرة طويلة مُمالة ـ نستطيع تفسير التصويت: (إيْ) المروي في تسكين الإبل، فقد تحولت الحركة المزدوجة الهابطة في التصويت (أيْ) إلى كسرة طويلة ممالة، وليس لهذه الكسرة الممالة رمزٌ كتابيٌّ في العربيّة فكتبت بالياء.

والرابعة: مرحلةُ الفتح، وفيها تتحولُ الحركةُ المزدوجةُ الممالة أو المنكمشة إلى فتحة طويلةٌ خالصة (ألف المد الطويلة) أي أنَّ التصويت (إي) المشتمل على الياء الممالة يتحوّل إلى: (أ ← آ)، ولإغلاق المقطع الطويل المفتوح المكون من الهمزة والألف تقحمُ الهمزةُ في آخره على النحو الذي رواه الخليل (آءُ).

(١) الأندلسي، أبو حيان، ارتشاف الضرب، ٥ / ١٣١٢ .

٢- الهاء مع الحركة المزدوجة

يبدو من التصويتات المروية باشتمالها على الهاء والحركةِ المزدوجة أنّها صورةٌ مطابقةٌ للتصويتات المشتملةِ على الهمزة والحركة المزدوجة في الاستعمال والبنية، فلعل صعوبة النطق بالهمزة قد دفع إلى إبدالها إلى الصوت الحنجريِّ الثاني وهو (الهاء). وباستقراء المروي من هذه التصويتات لا نجد ما يُشير إلى استعمال الهاء مع الحركة المزدوجة الواويّة الهابطة، بل المذكور يشير إلى استعمال الهاء مع الواو المديّة الطويلة على النحو الآتي:

- أُهُو المستعمل في التصويت للفرس، و: أُهُؤْ المستعمل في التصويت للخيل عند النّزا[١]. والتصويتان السابقان مستعملان في لهجات البادية الأردنية للفرس ولغيرها من الحيوان. وأمَّا إن كانت الواو عبارة عن شبه حركة أو نصف مَدٍّ، فمن الجائز القول - نظرّياً - إنها تشكل مع الضمة القصيرة قبلها حركة مزدوجة هابطة تتخلص منها اللغة - لثقلها - بإسقاط الواو (شبه الحركة) ومن ثمَّ تعوِّض عن سقوطها بإشباع الضمة على النحو الموضح الآتي:

أُهُوْ: 'uhuw ⟵ أُهُ: 'uhu ⟵ أُهو 'uhu

ونحن لا نستبعد أن يكون هذا التصويت قد استعمل بالحركة المزدوجة الهابطة المؤلفة من الفتحة القصيرة والواو (شبه الحركة) بعدها على الصورة: (هَوْ: haw) والدليل على ذلك روايتهم التصويت (أَهَيْ) و(هَيْه) ويستعمل كلٌّ واحد منهما في زجر الخيل والإبل وحتى الكلاب[٢]. وذكر الخليل أنَّهم يزجرون الإبل بالتصويت (هيا)[٣]. فالهمزة - هنا - مقحمةٌ للخلاص من خفاء الهاء الحنجريّة، وهي - كذلك - في التصويتات التي سبقت: (أُهُوْ) و(أُهُؤْ). وثقل الحركة

(١) عبد التواب، التطور اللغوي، ٧٨، ٧٩.

(٢) قطرب، الفرق في اللغة، ١٧٣، الأندلسي، أبو حيان، ارتشاف الضرب، ٥/ ٢٣١٣.

(٣) المصدران السابقان، ١٧٦، ١٧٨، ١٨٤، ٥/ ٢٣١٢.

المزدوجة الهابطة الواويّة دفع اللغة إلى إبدال الواو ياءً، أي أنَّ التصويت (هَوْ) تحوّل إلى (هَيْ).

وأحدُ تطورات التصويت (هَيْ) أن تُشبعَ فتحتُهُ القصيرة لمناسبة أصوات المدِّ الطويلة رفعَ الصوت والتصويت للحيوان، وبذلك نفسِّرُ صيغة التصويت المرويّة: (هايْ) المستعملة في التصويت للمُهر كما يذكر قطرب[١]. ولاشتمال هذا التصويت على الحركة المزدوجة الهابطة المؤلفة من الألف المدّية الطويلة والياء (شبه الحركة) (hay) لجأت اللغةُ إلى إسقاط (الياء) وهذا ما نفسّرُ به وجود التصويت: (ها) أو تبدل الياءُ همزةً إبدالاً موقعيّاً، وهذا ما نفسّرُ به التصويتَ المرويَّ: (هاء) وقد تُقصّرُ ألفُ المدّ الطويلة في التصويت: (هاء) ليتحول إلى الصيغة المروية (هَأ) أيضاً. وجميعُ هذه التصويتات مرويّةٌ في زجر الإبل والخيل والكلاب. والحقيقُ بالذكر أنّ المصادر اللُّغويّة القديمة قد ذكرت صيغتين يترجّح أنهما صورةٌ لانكماش الحركة المزدوجة اليائية في التصويت الأصل (هَيْ)، وهما: (هِيْ) و(إِهِيْ)[٢].

وأمّا ما نلمحُهُ من جواز قلبِ بعض التصويتات السابقة قلباً مكانياً؛ للفرار من الحركة المزدوجة الهابطة الثقيلة إلى الحركة المزدوجة الصاعدة التي تعدُّ أخفَّ من الهابطة، فيطالعُ في التصويتات: (يَهْ) و(ياهْ) و(يَهْياهِ) التي تستعمل في التصويت للإبل[٣]. فالتصويتُ (يَهْ) مقلوبُ (هَيْ) والتّصويت: (ياهْ) مقلوبُ: (هايْ). وقد سبق لنا تناولُ التصويتات المقلوبة في موضوع تقصير ألف المدِّ.

(١) الخليل، العين (هيا) ٤/١٠٧.

(٢) قطرب، الفرق في اللغة، ١٧٢.

(٣) ينظر: المصدر السابق، ١٧٦، ١٧٨، ١٨٤، الأندلسي، أبو حيان، ارتشاف الضرب، ٥/٢٣١٢.

المجموعةُ الثانية: الأصوات الحلقية والحركة المزدوجة

تصويتاتُ هذه المجموعة مشابهةٌ في تطوُّرِها، وفي بعض حالات استعمالها لتصويتات المجموعة الأولى، وللإيجاز نذكرُها على النّحو الآتي:

١- العين مع الحركة المزدوجة:

- عَوْ وعَوْهِ و(عَيْهِ) الذي يترجح استعماله بدليل وجود التصويت (عِيْهِ) و(عَيْ) و(عايْ وعاء وعا وعاهْ وعَهْ). وتستعمل للتصويت بالغنم والمَعَز، ويصوّت بها - على قلّةٍ - للإبل أيضاً[١].

ولبعضِ هذه التصويتات صُورٌ يمكنُ حملُها على القلب المكاني، ومن ذلك التصويت (يَعْ) و(ياعْ) فيمكن عَدُّ الأولِ مقلوباً من (عَيْ) وعدُّ الثاني مقلوباً من (عايْ) للخلاصِ من الحركة المزدوجة الهابطة وتحويلها إلى حركةٍ صاعدةٍ.

وثمة ملحوظةٌ تتعلّق بجواز أن تكون هذه التصويتاتُ إبدالاً من تصويتات المجموعة الأولى، تُبدل العينُ من الهمزة أو تُبدلُ من الهاء، لأنْ إبدال الهمزة عيناً قد يكون مناسباً للهجة تميم التي تبالغُ في نطِق الهمزة فتصبح عيناً وهو ما يُعرف بعنعة تميم، ولعلَّ الخليلَ بنَ أحمد أوّلُ من أشار إلى ذلك بقوله: "من ترك عنعنةَ تميم وكشكشة ربيعة فهم الفصحاء. أما تميم فإنّهم يجعلون بدلَ الهمزةِ العينَ"[٢].

وأمّا جوازُ إبدال العين من الهاء فيسوّغُه ضعْفُ الهاء وما بها من خفاءٍ؛ لذا تُبدل إلى صوتٍ واضح في السّمع وهو العين.

٢- الحاء مع الحركة المزدوجة

- حُوْ أو حَوْ وأَحَوْ وحَيْ وحِيْ وحَيْهِ وحايْ وحا وحاءِ وحُؤْ أو(حَأْ)، وتدور هذه التصويتات في فلك زجر المَعَز والغنم. وأمّا ما يبدو مقلوباً من هذه

(١) ابن القطاع، أبو القاسم علي بن جعفر، الأفعال، ٣/ ٤٥.

(٢) ينظر: ابن سيده، المخصص، ٤/ ١٣، ٦٤، الأستراباذي، شرح كافية ابن الحاجب، ٣/ ٢٠٤، ابن منظور، لسان العرب، (عوه) ١٣/ ٥٢٠، ٥٦٥.

التصويتات، فهو استعمالُهم التصويتَ: (وَحْ) الذي ذكره أبو حيان الأندلسيُّ في التصويتِ للبقر عن قطرب[١]، وما ذكره قطرب في كتابه (الفرق في اللغة) يخالف رواية أبي حيان عنه، ففي هذا الكتاب ما نصّه: "وأمّا الثور فيقال له: وَجّ ويلك! ليس إلا لم نَسْمع غيره"[٢]. فقد ذكر قطرب التصويت السابق بالجيم وليس بالحاء، فأيُّ الرأيين أقربُ إلى الصواب؟

التصويت الذي ذكره أبو حيان: (وحْ) هو المقلوبُ من التصويت (حَوْ) للتخلص من الحركة المزدوجة الهابطة وإن اسْتُعْمِل في التّصويت للبقر دون الغنم والمَعَز، فألفاظُ التصويت تصلح ـ في بعض الأحيان ـ أن تكون تصويتاً لضروب مختلفة من الحيوان، ومن ناحية أخرى لم تذكر مصادرُ اللغة استعمال التصويت (وجّ) بالجيم للبقر أو غيره من الحيوان، بل المذكور هو (وَحْ) بالحاء[٣]. وهذا ما يجعلُنا نعدُّ روايتَه بالجيم في كتاب قطربٍ من أخطاءِ الطباعة أو من السهوِ، نُقطت الحاء فَصارت جيماً! ويؤكّد ذلك ـ أيضاً ـ أنَّ لهجات البادية الأردنية تستعمل التصويت (حَوْ) بالواو شبه الحركة و (حو) بالواو المديّة الطويلة في زجر البقر، ولا تنطقُه بالجيم.

المجموعة الثالثة: التصويتات المكوّنة من أصوات الحنجرة أو الحلق مع بعض الأصوات اللغويّة

ومن هذا النمطِ التصويتاتُ الآتية:

– حَوْب، يُستعمل في زجر الجمل، وقد تكوّنت فيه الحركةُ المزدوجة المؤلفة من الفتحة والواو (aw) وقد روي تصويتانِ في زجر الإبل، أحدُهما؛ قولهم: حَبْ أو

(١) الخليل، العين، ١/ ٩١.

(٢) قطرب، الفرق في اللغة، ١٨٢، ١٨٣، ابن سيده، المخصص، ٤/ ١٢، الأندلسي، أبو حيان، ارتشاف الضرب، ٥/ ٢٣١٤.

(٣) قطرب، الفرق في اللغة، ١٨٣.

حبّ، والثاني: حابْ أو حابٌّ[١]. والظاهر أنَّهما عبارة عن التصويت (حَوْب) فلصعوبةِ هذه الحركةِ فإنّ اللغةَ قد تخلّصت منها بإسقاط الواوِ (شبه الحركة) فصار التصويتُ على النحو المرويِّ: (حَبْ) ومن ثَمَّ أشبعت الفتحة القصيرة فنشأت ألفُ المدِّ الطويلة على النحّو المرويّ (حابْ). ومن الجائز أن تكون هذه الحركةُ قد مرّت بمرحلة الانكماش وتحوّل شبه الحركة إلى ضمةٍ طويلةٍ مُمالة (o) بيد أنَّ مصادر اللغة لم تذكر استعمالها على هذا النحو.

– دَوْهِ، ويُستعمل في زجر الإبل، وروت مصادرُ اللغةِ التصويتين: (دَه وداهِ) في زجر الإبل أيضاً[٢]، وتطور الحركة المزدوجة هنا يشبه تطورها في التصويت السابق (حَوْب)، إلا أنّنا نلمحُ ـ هنا ـ ما يمكنُ أن نعدّه مقلوباً قلباً مكانياً من التصويتات التي سبقت، في قولهم:

– هَيْدَ وهِيْدِ وهَيْدِ وهِيْدَ وهادَ أو هادِ، وتُستعمل في زجر الإبل، وَوردَ بعضها في قول العرب: "أتاهم فما قالوا له: هَيْدِ ولا هاد". أي: لم يسألوه عن حالهِ، ووردَ ذلك في بيتِ إبراهيم بنِ هرمةَ:

حتى استقامت لهُ الآفاقُ طائعةً فما يُقال له هيدٌ ولا هادُ[٣]

فالتصويت (هَيْد) هو مقلوب التصويت السابق (دَوْهِ) بعد إبدال الواو (شبه الحركة) ياءً، أي بعد أن تحوّلت الحركة المزدوجة الواوّية الهابطة إلى حركة مزدوجة هابطة يائية، ويحتمل أنْ يكون انكماشُ هذه الحركة قد ورد في التصويت (هِيْد) بكسر الهاء، وأمّا التصويتُ (هادِ) فيمثّلُ المرحلةَ النهائية لتطوُّر الحَركةِ المنكمشة

(١) الأشموني، منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، ٣ / ٣٨١.

(٢) ينظر، الأزهري، تهذيب اللغة، (حب) ٤ / ١٠، ابن سيده، المخصص، ٣ / ٣٧٩، الزبيدي، تاج العروس، (حب) ٢ / ٣٢٤، ٣٣٨.

(٣) قطرب، الفرق في اللغة، ١٧٦، الأزهري، تهذيب اللغة، ١ / ١٠٠، ابن منظور، لسان العرب، (دهده) ١٣ / ٤٨٩–٤٩١.

وتحوُّلها إلى ألف مدّية طويلة، ويمكنُ أن يكونَ مقلوباً من التصويت (داهِ).

وفي لهجات البادية الدارجة خُصِّصَتْ دلالةُ التصويت: (دَهْ وداه) في زجر الخيل دون الإبل، ولا تستعملُ الصُّورُ المقلوبةُ السابقة.

والعلاقةُ الواضحة بين التصويتين (دَوْهِ) و (هَيْدِ) وما يتطوّر منهما تدفعنا إلى عدمِ موافقة بعضِ القدماء فيما ذهبوا إليه من أنَّ التصويتَ (دَهْ) لفظٌ فَارسيٌّ(١).

– حَيْزِ وحَزْ، ويستعملان في زجر الغنم. وقد تخلصت اللغةُ من الحركة المزدوجة الهابطة اليائية المكوّنة من الفتحة والياء شبه الحركة (aya) في التصويت (حَيْز) بإسقاط شبه الحركة (الياء) على ما يتضّح من التصويت: (حَزْ) ولم تذكر المصادر شيئاً من انكماش هذه الحركة في هذا التصويت أو شيئاً يمكن حملُهُ على تطور هذه الحركة بوصولها إلى مرحلة الفتح. بل ما رواه ابنُ منظور يمكن أن يُعدَّ مؤشراً على تطور هذه الحركة من الحركة المزدوجة الهابطة الواويّة، يقول: "الحَوْز: السّيرُ الشديدُ، أو الرّويدُ، أو الحَوْزُ: السّوقُ اللّين، وحاز الإبل يحوزها ويحيزها حَوْزاً وحَيْزاً: ساقها إلى الماء"(٢). فالدلائل تشيرُ إلى استعمالهم التصويتَ (حَوْز) لاستعمالهم الفعل: (حَوَّزَ) والمصدر: (الحَوْز). وورودُ ذلك ـ إنْ صَحَّ ـ في زجر الإبل عند سوقها لا يعني أنّ هذا التصويتَ لم يكن مستعملاً في سوق الغنم، فمعنى الزجر مشتركٌ في غير قليلٍ من التصويتات.

– عِيْز وعَزْ، ويستعملان في التصويت للمعَز أو للضأن، وقد ذكرنا هذا التصويتَ في منهج وضع التصويتات ورجّحنا أن يكون موضوعاً بإسقاط النون من لفظ (العَنْز) ولكنَّ استعمالَه ـ هنا ـ على النحو: (عِيزْ) باشتماله على الحركة المزدوجة في مرحلة انكماشِها ونطقِها كسرةً طويلةً ممالةً يؤكّد أنَّ هذه الحركة

(١) ينظر: ابن يعيش، شرح المفصّل، ٢ / ٢٤٤، الأستراباذي، شرح كافية ابن الحاجب، ٣ / ٢٠٤.

(٢) الأستراباذي، شرح كافية ابن الحاجب، ٣ / ٢٠٥.

كانت مستعملةً في مرحلة التسكين على النحو: (عَيْزْ) ولصعوبتها فإنَّ الياءَ (شبهِ الحركة) تسقط منها، وهو ما نفسِّر به وجود التصويت: (عَزْ) زيادةً على أنَّنا لا نجدُ تطوّراً لهذه الحركة من مرحلة الانكماش إلى مرحلة الفتح الذي يوجب أن يكون التصويت في هذه المرحلة على النحو: (عاز) وربّما تكون مراحل تطور الحركة المزدوجة الأربع قد تمثلت في هذا التصويت واستعماله إلاّ أنَّ المصادر لم تذكر هذا التصويت في مراحلِ هذا التطور المختلفة!

ومن ناحية ثانية قد يكون هذا التصويتُ تطوراً من التصويت السابق: (حَيْزِ) أُبدلت الحاء عيناً لوضوحها. وليس لدينا استعمالٌ لهذين التصويتين في لهجات البادية الأردنية بالزاي، بل الموجودُ المستعملُ للتصويت بالغنم هو (حَيْ) و(عي) وقد تحدثنا عليهما في موضوع الأصوات الحلقية مع الحركات المزدوجة.

- جُوهْ وجَهْ وجاهْ، تُستعمل في زجر الإبل وغيرها من ضروب الحيوان[1].

وليس في هذه التصويتات أيُّ وجود للحركة المزدوجة بالصورة المروية السابقة، ولكنّنا نُرجّحُ وجودَها على النحو: (جَوْه) بفتح الحاء؛ لأن الواو (شبه الحركة) تسقط للخلاص من الحركة المزدوجة الهابطة، يدلُّ على ذلك التصويتُ المرويُّ (جَهْ) بعد سقوط الواو، ومن ثمَّ تُشبع الفتحةُ القصيرة على النحو المرويِّ في التصويت (جاهْ) ولا يمنعُ أن تكون الألفُ المديّةُ - هنا - آخرَ مرحلة من مراحل تطور هذه الحركة في التصويت الذي سبق.

وممّا ينبغي ذكره - هنا - مسألتان، إحداهما: أنَّ الحركة المزدوجة لم تظهر في تصويتٍ يخلو من الأصوات الحنجريّة أو الحلقيّة باستثناء تصويت واحد وردَ في زجر الإبل عند السقي وهو قولهم: (جَوْتِ). الثانية: تتعلّقُ ببعض صور الحركة المزدوجة المرفوضة في بنية الكلمة العربيّة، فالثابتُ أنَّ اللغةَ قد تخلّصت من الحركة

(١) ابن منظور، لسان العرب، (حوز) ٥/٣٣٩، ٣٤٠.

(٢) ابن دُريد، جمهرة اللغة، (جهجه) ١/١٨٥، ابن منظور، لسان لعرب، (جهجه) ١٣/٤٨٦.

المزدوجة المؤلفة من الضمة القصيرة والياء (شبه الحركة) يقول الأخفشُ، سعيدُ بن مَسْعَدة (ت٢١٥هـ/ ٨٣٠م): "الياءُ الساكنةُ لا تكونُ بعد حرفٍ مضموم"(١).

ويرى بعضُ الدارسين المحدثين أنَّ اللغة قد تخلصت من الحركة المزدوجة الهابطة المكونة من الضمة والياء (uy) بوسائل معينة، وهذا يعني عدمَ وجود هذه الحركة في البنية الصّوتيةِ للكلمة العربيّة(٢).

والظاهر أنَّ بعض التصويتات قد احتفظت بصُور لهذا النمط من الحركات، ومن ذلك ما رواه قطرب بقوله: "وقال أبو طُفيلةَ الحِرْمازيُّ: "إذا أردت أنْ تقف الإبل، قلت: هُيْ هُيْ مضمومة الهاء ساكنة الياء"(٣).

المحور الثاني: المسائلُ الصوتية في صوامت التصويتات

يتناول هذا المحورُ موضوعين يختصّان بالأصوات الصامتة المؤلِّفة لبنية التصويتات، الأول: الإبدال الصوتي، والثاني: الجيم المفردة والمركبة.

١- الإبدال الصوتي

يعرِّف بعضُ القدماء الإبدال بأنّه: "جعل حرفٍ مكان حرفٍ غيره"(٤).

ومن استقراء التصويتات المستعملة للحيوان يتّضحُ أنَّ كثيراً منها قد نشأ من إبدال الأصوات اللغويّة من بعضها، فكثيرٌ من هذه التصويتات مستعملٌ استعمالاً مشتركاً، وتشيعُ في بنيتها الصوتية الأصواتُ الحنجريّة والحلقيّة، وقليلٌ منها يخلو من هذه الأصوات.

وقد قسّمنا هذا الإبدالَ على قسمين، الإبدال الذي يقع في الأصوات الحنجرية والحلقيّة، أو بين النوعين معاً، والإبدال الذي يقع بين سائر الأصوات اللغويّة.

---

(١) الأخفش، سعيدُ بن مَسْعدة، معاني القرآن، ١ / ٤١.

(٢) ينظر: الشايب، فوزي، أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربيّة، ٤١٢-٤١٦.

(٣) يُنظر: قطرب، الفرق في اللغة، ١٧٦.

(٤) الأستراباذيّ، شرح شافية ابن الحاجب، ٣ / ١٩٧.

(أ) الإبدال في الأصوات الحنجريّة والحلقيّة

١- إبدال الهمزة

(أ) إبدال الهمزة هاءً.

الإبدال بين هذين الصوتين واردٌ في اللغة يفسّرهُ صعوبةُ نطقِ الهمزة؛ لذا يُصار في كثيرٍ من أمثلة الإبدال - هنا - إلى التخلُّص منها بإبدالها إلى صوت الهاء، فكلاهما من الأصوات الحنجريّة.

ومن أمثلة إبدال الهمزة هاءً الآتي:

- إِخْ وهِخ وإِيخ وهِيخْ أو (هيخّ) وقد سبق الحديث على بعض هذه التّصويتات في زجر الجمل أو الناقة ليبرك، وقد روى ابن منظور رأي بعض القدماء في أنَّ الهاء مبدلة من الهمزة، أو أنَّ التصويتات عبارةٌ عن لغتين مختلفتين(١).

ويترجح أنَّ إبدال الهمزة هاءً يحدث في اللهجة الواحدة، وليس ذلك من اختلاف اللهجات؛ يؤيِّد ذلك سماعُ هذه التصويتات في لهجاتِ البادية الأردنية بالهاء والهمزة في اللهجة الواحدة.

- إِجْدَمْ وهِجْدَمْ أو هِجْدُمْ وإِجْدْ وهِجْدْ، ذُكرت هذه التصويتات فيما مضى لزجر الخيل للإقدام، وقد أشار ابنُ منظور في مواضع مختلفة من معجم: (لسان العرب) إلى جواز أن يكون: إِجْدَمْ وهِجْدُمْ من الإبدال الصوتي بين الهمزة والهاء، أو أنَّ ذلك من باب اللغات واختلافها. والذي نرجّحُه أنَّ الهاءَ مبدلةٌ من الهمزة في هذه الأفعال المنقولةِ أصلاً إلى التصويت، فقد رُوي هذا الإبدال في أفعال من نحو: أرقت الماء وهرقتُهُ، وأرحتُ الدابة وهَرْحتها، وأنرتُ النار وهنرتها(٢).

- إِسْ وهِسْ، وردا في زجر الشاةِ لقول قطرب: "وقالوا في الشاةِ: إِسُ إِسُ وإِسْ

(١) ابن منظور، لسان العرب، (هيخ)، ٣/ ٦٥.

(٢) المصدر السابق، (هرق) ١٠/ ٣٦٥، (جدم) (قدم) (هجدم) ١٢/ ٨٦، ٤٦٧، ٦٠٣.

ساكنة، وإسَّ - بتثقيل السين - وهسٌّ بالتثقيل مكسورة"[١]. فهو وإن لم يذكر الإبدال صريحاً، إلاّ أنَّ ما يُسمع في لهجات البادية الأردنّية يعزِّزُ إبدالَ الهاء الحنجريّة من الهمزة الحنجريّة، فجميع هذه التصويتات تنطق مرّة بالهمزة ومرّة بالهاء في اللهجة الواحدة وبالدلالة نفسها المستعملة في العربية الفصيحة.

- إرْ أو أُرْ أو أَرْ في زجر الغنم، وذكر القدماءُ التصويتَ (هِرْ) مصوّتاً به للغنم أيضاً[٢].

ويشيعُ التصويتُ المهموزُ: (إرْ) في لهجات البادية الأردنية للغاية نفسها، وكذلك يستعملون التصويت: (هِرْ) ممّا يؤكّد أنهما تصويت واحد أُبدلت الهمزة هاءً للخلاص من ثقل الهمزة.

- تَأْ أو تُؤْ ويستعملان في دعاء التّيس إلى النّزا (السّفاد) أو في زجر البعير أو الكلب، وذكر بعضُ القدماء صيغةً أخرى بالهاء (تُهْ) نرجحّ أنّها من إبدال الهاء من الهمزة[٣].

- سَأْ، ذُكر في التصويت للحمار زجراً له، ونرجّح إبدال الهمزة هاءً بعد إشباع فتحة السين في التصويت المرويِّ (ساهْ) في زجر الحمار أيضاً[٤].

- جَأْ، وإبدالُ الهمزةِ هاءً يبدو من روايتهم التصويت: (جَهْ) فكلاهما مستعملٌ في دعاء الإبل أو الحمار أو تسكين الأسد والذئب[٥].

(ب) إبدال الهمزة عيناً

إبدالُ الهمزة عيناً ممّا تقرّه القوانين الصوتية لتقاربهما المخرجي، فالهمزة من أصوات الحنجرة عند المحدثين، ومن أصوت الحلق عند القدماء، والعين من الأصوات

(١) قطرب، الفرق في اللغة، ١٨٠.

(٢) ينظر: ابن سيده، المخصص، ٤ / ١١، ابن منظور، لسان العرب، (رأرأ) ١ / ٨١، ٨٢.

(٣) ابن منظور، لسا العرب، (تهته) ١٣ / ٤٨٢، الأشموني، منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، ٣ / ٣٨٢.

(٤) قطرب، الفرق في اللغة، ١٧١، الأشموني، منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، ٣ / ٣٨٢.

(٥) ابن دريد، جمهرة اللغة، (جهجه) ١ / ١٨٥، ابن فارس، مقاييس اللغة، (جأ) ١ / ٤٢٣.

الحلقية لدى القدماء والمحدثين. وقد ذكرنا أنّ القدماء والمحدثين يعدّون هذا الإبدالَ نوعاً من تحقيقِ الهمزة يختصُّ بلغة تميم فيما يُطلق عليه: (العنعنة).

وما يمكن حملُهُ على هذا الإبدال التصويتُ الذي سَبَق (سَأْ) فقد ذكرنا جواز إبدال همزته هاءً في التصويت: (ساه) بعد إشباع الفتحة القصيرة، وليس ببعيد أنْ تُبدلَ الهمزةُ عيناً في التصويت المرويِّ (سَعْ) المستعمل في التصويت للمَعَز والإبل والضأن[1].

٢- إبدال الهاء

تبدلُ الهاءُ إلى أحد الأصوات اللغويّة الآتية:

(أ) إبدالها عيناً

ومن هذا النمط قولهُم:

- دَهْ أو دُهْ أو داهْ، ويترجح إبدال هذه الهاء عيناً في التصويتات: دَعْ أو دُعْ أو داعْ، وجميع هذه التصويتات وما سبق مرويّةٌ في زجر الغنم، وفي غيرها.

- هَلْ أو هَلَ أو هلا - بإشباع الفتحة - وقد ذكرناها في موضوع إشباعِ الفتحة القصيرة، ويترجّحُ إبدالُ الهاء عيناً في قولهم: (عَلْ) في التصويت للغنم، ومن ثمَّ نرى أنّه يُقلب قلباً مكانياً في قولهم: (لَعْ) أو (لَعَاً) فيصير زجراً للإبل لتنهضَ[2].

- جَهْ ذُكر في إبدال هائه من الهمزة في التصويت: (جَأْ) ونرى أنَّهم كانوا يستعملون التصويت: (جَعْ) - بإبدال الهاء إلى عين - فمعجمات اللغة والمصادر اللغويّة لا تذكر ذلك الإبدال صريحاً، إلا أنّها تذكر أنَّ الجعجعةَ: صوتُ الجمال إذا

(١) قطرب، الفرق في اللغة، ١٨٠، ابن دريد، جمهرة اللغة، (سعسع) ١/٢٠٣. ابن يعيش، شرح المفصل، ٢/٢٤٥.

(٢) قطرب، الفرق في اللغة، ١٧٣، ابن سيده، المخصص، ٣/٣٨٠، ٤/١٢، ابن منظور، لسان العرب، (علل) ١١/٤٧٢.

اجتمعت، وجَعْجَعَ الإبلَ وجَعْجَعَ بها بمعنى حرّكها للإناخة أو للنهوض... وجَعْجَعَ بالماشية وجَعْجَعَ بها: إذا حَبَسها[١]. فلعلّهم كانوا يستعملون هذا التصويت عند حبسها.

وليس لدينا من التصويتات ما يمكنُ حملُهُ على إبدال العين هاءً، فالوضوح السمعي للعين يجعلها أكثرَ مناسبةً للتصويتات بدلاً من الهاء التي أكّدَ خفاءَها وضعفَها الخليلُ بن أحمد.

(ب) إبدال الهاء حاءً

ومن ذلك الإبدال قولُهم:

– جَهْ، ونرى أنَّه يمكن للهاء أنْ تُبدل حاءً ـ زيادة على ما سبق من إبدالها عيناً ـ في التصويت: (جَحْ) المذكور في زجر الضأن أو الكبش، وقد سبق الحديث عليه. ويسوِّغُ هذا الإبدالَ قربُ مخرجهما وضعْف الهاء، يقول الخليل: "ولولا هتة في الهاء، وقال مرّة (هَهَّة) لأشبهت الحاء؛ لقرب مخرج الهاءِ من الحاء". وذكر ـ أيضاً ـ أن الهاء "إنّما هي نفسٌ لا اعتياص فيها"[٢]. ويؤكّد بعضُ الباحثين المحدثين ما جاء في وصف الخليل للهاء، فهي ـ من ناحية صويتة ـ حركةٌ مهموسةٌ[٣].

– هَبْ وهاب، ذُكرت في إشباع الحركات القصيرة، ونرى أنَّ الهاء فيها تُبدل إلى حاء في التصويتات: (حَبْ وحابْ أو حابّ).

– هَلْ ذكرنا جواز إبدال هائه عيناً في التصويت (عَلْ) الذي يقلب قلباً مكانياً على النحو: (لع) و(لعاً) ومن الجائز أن تُبدلَ الهاءُ ـ أيضاً ـ حاءً، ويؤيد ذلك قولهم (حَلْ) في التصويتِ للإبل أو للناقة على وجهِ الخصوص[٤].

(١) الخليل، العين، (جع) ١/٦٨، ابن منظور، لسان العرب، (جعع) ٨/٥٠، ٥١.

(٢) الخليل، العين، ١/٥٧، ١/٥٤.

(٣) الشايب، محاضرات في اللسانيات، ١٨٩، ١٩٠.

(٤) الخليل، العين، (حل) ٣/٢٧، سيبويه، الكتاب، ٤/٢١٦، ابن منظور، لسان العرب، (حلل) ١١/١٧٤.

٣- إبدال الحاء

(أ) إبدالها خاءً

أشار بعضُ القدماء إلى بعض التصويتات التي تحتمل إبدال الحاء خاءً على النحو الآتي:

- قِلِخْ أو قَلَخْ أو قَلْخ، ويصوّت بها للبعير عند الضّراب أو للحمار المسنِّ، وقد أشارَ إلى الإبدال بين الخاء والحاء الخليلُ بقوله: "ويُقال للحمار المسنِّ: قَلْخٌ، وقَلحٌ بالخاء والحاء. قال:

أيحكُمُ في أموالِنا ودمائنا قُدَامةُ قَلْخُ العَيْرِ عَيْرِ ابنِ جَحْجَبِ

ويروى بالحاء أيضاً"(١).

ونرى أنَّ الخاء هي التي تُبدل من الحاء لما ذكر الخليلُ من مرافقة (البحّة) لنطق الحاء إذ قال: "ولولا بحّة في الحاء لأشبهت العين لقرب مخرجها من العين"(٢). وقد فسر فوزي الشايب هذه البحةُ بقوله: "وبفقد الحاء للنفس تصبح عيناً ولعل هذا هو مقصد الخليل بقوله: ولولا بحة..." زيادةً على قوله: إن إبدال الحاء خاءً لا يتطلب إلا قليلاً من الاحتكاك، و: "أقلُّ أثر من الحكٍّ يحوِّل الحاء إلى خاءٍ"(٣).

- حَأْ، ذكر قطرب جواز إبدال الحاء خاءً بقوله: "وقد حأحأتُ بالتيسِ حأحأةً، وخأخأت به خأخأةً ـ بالخاء ـ فجاءت هذه في معنى الحاء أيضاً، إذا قلتَ عند هبابِهِ: خُؤْخُؤْ"(٤).

- جَحْ، ذُكر هذا التصويتُ في زجر الغنم والكبش وغير ذلك، ويترجّح إبدال الحاء خاءً في التصويت المرويِّ في زجر الكبش (جَخْ)(٥).

---

(١) الخليل، العين، (قلخ) ٤/ ١٥٢.

(٢) المصدر السابق، ١/ ٥٧.

(٣) الشايب، محاضرات في اللسانيات، ١٩٠.

(٤) قطرب، الفرق في اللغة، ١٨١.

(٥) ابن سيده، المخصص، ٤/ ١٣.

(ب) الإبدال بين سائر الأصوات اللُّغويّة

وهذا القسم من الإبدال يقع بين الأصوات غير الحلقيّة والحنجريّة، وقد جاءت أمثلتُه على النحو الآتي:

١- إبدال السين شيناً والعكس

ومن هذا الإبدال قولُهم:

- قوسْ في زجر الكلب أو دعائه، إلا أنّ أبا حيان ذكره بالسين والشين، يقول: "وللكلبِ: قُوسْ قُوسْ، وقُسْ قُسْ، وقُوشْ قُوشْ، وقد قَشْقَشْتُ به، وقَوْقَسْتُ به"(١).

- سَأْ، ذكره الخليلُ في زجر الحمار؛ ليحبسَ، وذكره بالشين في زجر الحمار ليمضيَ، أو لدعائه إلى الماء أو العلف، وقد رُوي بالجيم والشين: (جَأْ) و(شَأْ) وهما لغتان للعرب(٢).

وإذا عدنا إلى التصويت: (قُوسْ) فإنّا نلحظُ استعماله بالسين في لهجات البادية الأردنية، وكذا رويُ في كثيرٍ من المصادر اللغويّة القديمة، مما يعزِّز إبدالَ السين شيناً؛ احتكاماً إلى اطِّرادِ الرواية بالسين أكثر من الشين، ومن ناحية الصّفات الصوتية والطبيعة المخرجيّة للصوتين، فكلاهما من الأصوات الرخوة المهموسة، ومن أصوات الصفير(٣).

وأمّا التصويتُ: (سَأْ) فنرجح أنّ السين هي التي تُبدل من الشين، وذلك لأنَّ أصل استعمال هذا التصويت بالجيم المركبة المكوّنة من الدال والشين المجهورةُ. وقد تكون السين إبدالاً من الشين المجهورة. وسنبيِّنُ ذلك في موضوع الجيم المركبة.

(١) الأندلسي، أبو حيان، ارتشاف الضرب، ٥/ ٢٣١٤.

(٢) الخليل، العين، (شأشأ) ٦/ ٢٩٩، (سأسأ) ٧/ ٣٣٦، ابن منظور، لسان العرب، (جأ) (سأ) (شأشا) ١/ ٤٢، ٩٢، ٩٩، ٦/ ١٣٣، الزبيدي، تاج العروس، (شأ) ٦/ ١٣٣.

(٣) ينظر في طبيعة الأصوات الصفيريّة، الشايب، محاضرات في اللسانيات، ١٩٧.

٢- إبدال الطاء دالاً

ومن ذلك قولهم:

- جِطِحْ وهو التصويت الذي رَجحنا إبدال طائه دالاً في قولهم: (جِدِحْ) ويسوّغ هذا الإبدال أن الصوتين من الأصوات الأسنانيّة اللثويّة، وأمّا ترجيح إبدال الطاء دالاً فيتأتّى من كون الطاء من الأصوات المطبقة، والدال لا إطباق فيه، وقد ذكر سيبويه أنّه لولا الإطباق لصارت الطاء دالاً(١).

٣- إبدال الثاء تاءً

ذكر قطرب هذا الإبدال بقوله: "وفي دعاء التيس لينزو: ثَأْ ثَأْ، وتَأْ تَأْ، وقد ثأثأتهُ." وذكره ابن منظور بقوله: "والتأتاءُ: دُعاء الحِطّان إلى العَسْب - والحِطّان: التيس - وهو الثأثاءُ أيضاً"(٢). ونميل إلى أنَّ الثاء قد أبدلت تاءً؛ لأنَّ نطق الثاء يتطلّب إخراج طرف اللِّسان ووضعه بين الأسنان، وفي ذلك مشقّة وجهد عضليٌّ؛ لذا تخلّصت اللغة من هذا الصوت بإبداله تاءً وهو من الأصوات الأسنانية اللثويّة الذي لا يتطلب نطقُهُ إخراج طرف اللِّسان(٣).

٢- الجيم المفردة والمركبة

(أ) الجيم المفردة

وصف سيبويه الجيم الفصيحة بأنَّها من الأصوات المجهورة الشديدة(٤). بيد أنَّ بعض الباحثين المحدثين قد عَدَّ هذا الوصف منطبقاً على نمط من الجيم كانت تنطق قديماً كنطق أهل القاهرة للجيم في كلمة (جَمَل) أي أنَّها كانت تنطق مفردةً خاليةً من التعطيش، ومن ثَمَّ ذهب قسم من هؤلاء المحدثين إلى أنَّ هذا النطق كان

(١) سيبويه، الكتاب، ٤ / ٤٣٦، وينظر: بشر، علم اللغة العام الأصوات، ١٠٢.

(٢) قطرب، الفرق في اللغة، ١٨٣، ابن منظور، لسان العرب، (تأتأ) ١ / ٤٠.

(٣) ينظر: عبد التواب، التطوري اللغوي، ٨٣، بشر، علم اللغة العام الأصوات، ١٠١.

(٤) سيبويه، الكتاب، ٤ / ٤٣٤.

الأصلَ في نطق الجيم، والدليل على هذه الأصالة أن كثيراً من اللغات الساميّة تُنطق فيها الجيم نطقاً إفرادياً كالجيم القاهريّة، ففي العبريّة والآراميّة والسريانيّة والحبشيّة تُنطق الجيم مفردةً في كلمة من نحو: (جَمَل)(١).

والجيم المفردة من أصوات أقصى الحنك، ويشاركها في هذا المخرج صوتُ الكاف، إلا أنَّ الكاف صوت مهموس، والجيم المفردة صوت مجهور، وهي النظير المجهور للكاف المهموسة. ومن مخرج أقصى الحنك ـ أيضاً ـ صوت القاف الذي عدّه القدماء مجهوراً، وأما المحدثون فقد ذكروا أنّه من الأصوات اللهويّة المهموسة(٢).

وتأسيساً على ذلك نجد بعض التصويتات التي يمكن حملُها على الإبدال بين هذه الأصوات الثلاثة، على النحو الآتي:

١- إبدال الكاف جيماً

ومن ذلك ما ورد في قولهم:

حِجِحْ وحِكَحْ وقد ذكرناهما مرويين في زجر الغنم أو الجدي، ونرى أنَّ الكاف تبدلُ إلى الجيم المفردة؛ لمناسبة الأصوات المهجورة للتصويت أكثر من الأصوات المهموسة. ويرى بعضُ الباحثين جواز أن تكون بعض الألفاظ المعجميّة المروية بالجيم والكاف من نحو: عُجَلِط وعُكَلِط والأهْوَج والأهْوَك من باب النطق بالجيم المفردة إلاّ أنَّ المروي منها بالكاف يُفسَّر بشيئين، أحدهما: أنَّ اللغة قد رسَمت الجيم المفردة بالكاف؛ لعدم وجود رمز كتابيٍّ لهذه الجيم. والثاني: أنَّ التقارب الشديد بين الجيم المفردة والكاف جعل القدماء يرسمون الجيم المفردة بصورة الكاف(٣). وكان ابنُ الجزريِّ (ت٨٣٣هـ) قد أدرك التقارب الشديد بين الجيم المفردة والكاف

(١) ينظر: أنيس، الأصوات اللغويّة، ٦٥، عبابنة، دراسات في فقه اللغة، ١٩٨، عبد التواب، التطور اللغوي، ١٣٢، ١٣٣، المدخل إلى علم اللغة، ٥٢.

(٢) أنيس، الأصوات اللغويّة، ٦٧، عبابنة، دراسات في فقه اللغة، ٢٠٧، ٢٠٨.

(٣) عبابنة، دراسات في فقه اللغة، ١٩٩.

بقوله: "والجيم يجب أن يتحفظ بإخراجها من مخرجها، فربما خرجتْ من دون مخرجها، فينتشر بها اللِّسان، فتصير ممزوجة بالشين، كما يفعل كثيرٌ من أهل الشام ومصر. وربما نبا بها اللِّسان فأخرجها ممزوجة بالكاف كما يفعله بعض الناس، وهو موجود كثيراً في نطق بوادي اليمن"(١).

٢- الإبدال بين الجيم المفردة والقاف

ومن ذلك ما ورد في التصويتات:

- إِجْدَمْ وهِجْدَم وإِجْدْ وهِجْدْ وهي تصويتات ذكرنا أنها منقولة من فعل الأمر: (اقدم) وروايتها بالجيم تشير إلى إبدال القاف جيماً.

- جِسْ المستعمل في زجر البعير، ويترجّح أنّه كان ينطق بالقاف ـ أيضاً ـ على النّحو: (قِسْ) لقول القدماء: قسَّ الإبل بمعنى ساقها سوقاً شديداً(٢).

- جَعْ، وقد رجحنا النطق به تأسيساً على أن معنى جَعْجع بالماشية وجعجع بها حبسها، ونزيد في دلائل استعماله تصويتاً ـ هنا ـ من جواز قلبه قلباً مكانياً بعد إشباع الفتحة القصيرة على النحو المروي (عاج) في زجر الإبل. وأما التبادل بين الجيم والقاف ـ هنا ـ فشاهدهُ ما ورد في التصويتين: (قَعْ وقاعْ) المستعملين في زجر الغنم(٣).

(ب) الجيم المركبة

الجيم المركبة مصطلح توسم به الجيم التي يتطور نطقها من الإفراد ـ أي من الجيم التي تنطق كالجيم القاهريّة ـ إلى الجيم المركبة بسبب ممّا يسميه المحدثون: قانون الأصوات الحنكيّة.

وينصّ هذا القانون على أنَّ أصوات أقصى الحنك كالكاف والجيم المفردة تميل

(١) ابن الجزري، الحافظ أبو الخير، النشر في القراءات العشر، ١/ ٢١٧.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، (قس) ٦/ ١٧٣، الأندلسيّ، أبو حيان، ارتشاف الضرب، ٥/ ٢٣١٤.

(٣) ينظر: الخليل، العين، (جع) ١/ ٦٨، الأستراباذي، شرح كافية ابن الحاجب، ٣/ ٢٠٥، ابن منظور، لسان العرب (جعع)، ٨/ ٥٠، ٥١.

بمخرجها إلى نظائرها من الأصوات الأماميّة (أصوات وسط الحنك)، حين تأتي بعدها حركة أماميّة كالكسرَة التي تجذب هذه الأصوات إلى نظائرها من أصوات أقصى الحنك، ويغلب على هذه الأصوات أن تكون من الأصوات المركبة التي تجمع بين الشدّة والرخاوة(١).

وقد تأثرت الجيم المفردة بهذا القانون حين انتقل نطقها من الإفراد إلى التركيب، وهذا يشمل كلَّ جيم سواء كان بعدها حركة أماميّة كالكسرة أو غيرها من الحركات؛ طرداً للباب على وتيرةٍ واحدةٍ، والجيم المركبة تتألف من صوتين، الأول: الدال الغاريّة، والثاني الشين المهجورة، ويرى بعض الباحثين أن الجيم المركبة فيها شيءٌ من شِدّة الدال، وشيء من التعطيش، أو أنها مركبة من صوت قريب من الدال، والصوت الثاني: معطّش كالجيم الشاميّة(٢).

وفيما يأتي تفصيلٌ لمسائل الجيم المركبة في التصويتات:

١- التصويتات المشتملة على الجيم المركبة

ذكر القدماء بعضَ التصويتات التي نرجِّحُ أن الجيم فيها مركبة تأسيساً على الصورة الكتابيّة التي رسمت بها الجيم، وكذلك نطقها في اللهجات الدارجة في البادية الأردنية، ومن ذلك قولُهم:

- تُشُؤْ أو تَشُؤْ في زجر الحمار أو الغنم يقول قطرب: "وقالوا في الحمار: تَشُؤْ تَشُؤْ، وقد شَأْشأت به، وذلك إذا دعوتَه للعلف." وذكره ابن سيده في زجر الغنم، بقوله: "وشأْشأتُ بالغنم: قلت لها: تُشُؤْ تُشُؤْ"(٣).

ويُنطق هذا التصويت في لهجات البادية مركباً من الدال الغاريّة والشين المجهورة

(١) أنيس، في اللهجات العربيّة، ١٢٣.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ٦٦، بشر، علم اللغة العام الأصوات، ١٢٦، عبد التواب، التطور اللغوي، ٥١، ٥٢، ١٣٢، ١٣٣، المدخل إلى علم اللغة، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٢٢١.

(٣) قطرب، الفرق في اللغة، ١٧٢، ابن سيده، المخصص، ٤/ ١٢.

في التصويت للحمار إذا دُعي للماء. وأما رسم القدماء للجيم المركبة بالتاء والشين (تش)، فالظاهر أنهم رسموا الجزء الأول منها تاءً؛ لقرب التاء من الدال، فكلاهما من الأصوات الأسنانيّة الشديدة، والفرقُ بينهما أنَّ التاء مهموسة، والدال نظيرها المجهور(١). وقد وصف بعضُ الباحثين المحدثين الصوت الأوّل من الجيم المركبة وصفاً يجعل رسمه عند القدماء (تاءً) يكاد يكونُ مقبولاً، إذ ذكروا أن فيه "شيئاً من شدّة الدال" والتاء صوت شديد، أو أنَّ الجيم: "كأنّما تبدأ بدال" أو بصوت "قريب من الدال"(٢). وعلى ذلك فإن رسم القدماء للجيم المركبة بالتاء والشين: (تش) يدلُّ على أن التصويت: (تشؤ) يشتمل على الجيم المركبة.

يُشارُ إلى أنَّ التصويت السابق (تشؤ) روي مكتوباً بالجيم في قولهم: جَأْ وجِئْ وجُؤْ، واستعمال هذه التصويتات مطابق لاستعماله في لهجات البادية، فقد ذكر القدماء أنه يصوت بها للإبل لدعائها للشرب زيادةً على استعماله في التصويت للحمار، يقول ابن منظور: "وقد جَأْجأ الإبلَ وجَأْجأَ بها: إذا دعاها إلى الشرب، وقال: جِئْ جِئْ، وجَأْ جَأَ بالحمار كذلك، حكاه ثعلب"(٣).

٢- انحلال الجيم المركبة

انحلال الجيم المركبة مصطلح يُطلق على تطور هذه الجيم بانحلالها إلى أحد أصواتها المكوّنة لها، يقول رمضان عبد التواب: "ومن الملاحظ في التطور اللُّغوي، أنّ الأصوات المزدوجة، تميلُ في تطورها بعد ذلك، إلى أن تنحل إلى أحد الصوتين المكونين لها، وقد سبق أنْ عرفنا ما أصاب الجيم في اللهجات الحديثة، وانحلاله - أحياناً - إلى الدال، وأحياناً إلى شين مجهورة"(٤).

(١) أنيس، الأصوات اللغويّة، ٤٩، ٥٠، بشر، علم اللغة العام الأصوات، ١٠٢.

(٢) بشر، علم اللغة العام، الأصوات، ١٠٢، ١٢٦.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، (جأ) ١/ ٤١، ٤٢، وينظر: ابن فارس، مقاييس اللغة، (جأ) ١/ ٤٢٣.

(٤) عبد التواب، التطور اللُّغوي، ١٣٤.

وسبب هذا الانحلال هو الثقل الصوتي يقول يحيى عبابنة: "يمكن القول إنَّ صوت الجيم المركب لا يعدُّ من الأصوات السهلة، بل هو صوت يقتضي من الناطقين النطق بصوتين مختلفين في آن واحد، وهما صوتُ الدال اللثويّة الأسنانيّة المجهورة، وصوت الشين المجهورة"(١).

فأمّا انحلالها إلى مكوّنها الثّاني - وهو الشين المجهورة - فواضحٌ من روايتهم التصويت المشتمل على الجيم المركبة: (جَأْ) الذي سبق برواية أخرى على النحو: (شَأْ) فممَّا ذكره ابنُ منظور والزَّبيديُّ في هذا الشأن أنّ: شُؤْ وشَأْ: دعاء للحمار إلى الماء، أو أنَّ (شَأْ) زجر للحمار والغنم لتمضيَ، وذكر ابن منظور الصورة المركبة: (تَشَأْ) فعدَّها زجراً، وبعض العرب يقول: (جَأْ) وهما لغتان(٢).

ويظهر أنَّ الشين المجهورة تتحول في نطق بعض القدماء إلى سين، ولعلَّ من ذلك روايتهم التصويت: (شَأْ) بالسين: (سَأْ) فقد ذكر ابن منظور والزبيدي أنه زجر للحمار ليمضي أو يحتبس أو يشرب، بل إنّ هذا الزجر ممّا سُمي به الحمار، فقالوا: (السَّأْساء) و (السَّأْشاء)(٣).

ومن التصويتات التي نرى أن الجيم قد انحلت فيها إلى مكونها الثاني: (الشين المجهورة) قولهم:

- هِجْ أو هَجْ أو هيجِ، وقد ذكرنا هذه التصويتات في زجر الإبل والغنم وغيرها من ضروب الحيوان.

ونرجّح أنّهم كانوا ينطقون الجيم - هنا - شيناً مجهورة؛ لأنَّ لهجات البادية الأردنية ما انفكّت تنطق هذه التصويتات بالشين المجهورة لزجر الغنم والحمير على

(١) عبابنة، دراسات في فقه اللغة، ٢٠٢.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، (جأ) (شأ) ١/ ٤١، ٤٢، ٩٩، وينظر الزبيدي، تاج العروس، (جأ) ١/ ٢٨٠.

(٣) المصدران السابقان، (سأ) ١/ ٩٢، (عدس) ٦/ ١٣٣، ١/ ٢٦١.

وجه الخصوص. وثمة دليلٌ آخر من إبدال هذه الشين سيناً في بعض الروايات التي يذكرها قطرب، فبعد أن ذكر التصويت (هيجِ) الذي تُمطل كسرته القصيرة على النحو: (هيجي) ذكر التصويت (هيسي) معتمداً على أبيات من الرجز يقول: "وقالوا: هِيسي: زجرُ التّسيير، وقال الراجز:

إحدى لياليك فهيسي هيسي

لا تطمعي عندي بالتعريسِ"(١)

وأما انحلال الجيم المركبة إلى مكوِّنها الأول (الدال) فيمكن لنا أنْ نمثل له من تصويت واحد أورده قطرب في دعاء الغنم للماء، وهو قولهم:

– دِرْ، فقد ذكره بقوله: "و دِ رْ دِ رْ: دعاء للغنم إلى الماء، وقد درّهت بها تدريهاً." واشتقاق الفعل منه باشتماله على الهاء دون أن تكون الهاء من مكوّنات التصويت يقودنا إلى قرنِ هذا التصويت بتصويت آخر ذكره قطربٌ في زجر الكلب الصغير وهو قولهم: (جِرَهْ)(٢).

فلعل التصويت (جِرَهْ) كان مستعملاً في التصويت للغنم أيضاً، بدليل انحلال الجيم إلى مكونها الأول وهو الدالُ، وبدليلِ اشتمال الفعل (دَرَّهَ) على الهاء أيضاً.

وسماعُ التصويت (دِرْ) في لهجات البادية الأردنية منطوقاً مرّة بالجيم المركبة ومرّة بالدال في زجر الغنم يؤكد ما ذهبنا إليه من كون (الدال) في التصويت الفصيح: (دِرْ) ربما يكون انحلالاً للجيم المركبة إلى مكوّنها الأوّل!

ويُسمع في هذه اللهجاتِ ـ أيضاً ـ نطقُهُ بالهاءِ والجيم المركّبة على نحوِ روايةِ القدماءِ له: (جِرَهْ).

(١) قطرب، الفرق في اللغة، ١٧٩.

(٢) المصدر السابق، ١٨٣، ١٨٤.

٣- إبدال الجيم المركبة ياءً

يعدُّ بعضُ المحدثين إبدال الجيم المركبة ياءً تطوراً آخر لهذه الجيم، فهي تنتقل في تطورها من الجيم المفردة الخالية من التعطيش إلى الجيم المركبة، وبعد ذلك تنحلُّ إلى مكوِّنيها: (الدال والشين المجهورة) وقد تُبدل ياءً في مرحلة من مراحل هذا التطور، والسبب في ذلك هو اتحاد الجيم المركبة والياء في المخرج، وهو الغار أو سقف الحنك الصلب، زيادة على كونهما صوتينِ مجهورين، وليس يفرق بينهما إلا أن الجيم صوت مركب يجمع بين الشدة والرخاوة، والياء من الأصوات المتوسطة التي فيها بعض الرخاوة فتنطق بشيءٍ من الاحتكاك(١).

ويسوغُ هذا التطور أنَّ الجيم المركبة ثقيلة في النطق والياء أخفُّ منها، وإن كان هذا لم يمنع من إبدال الياء ـ أحياناً ـ جيماً كما هو الحال في (العجعجة) التميمية(٢).

والتصويت الذي يمكن حمله على إبدال الجيم المركبة ياءً هو قولهم:

– يَأْ أو ياءْ (بعد إشباع الفتحة القصيرة) فقد أوردت المصادر اللغوية استعمال هذا التصويت في دعاء الناس والإبل والمَعز(٣).

ولعلّ هذا التصويت هو المذكور سابقاً: (تَشَأْ) أو (تُشُؤْ) الذي رجحنا نطقه بالجيم المركبة، ومن ثَمَّ رأينا انحلال الجيم المركبة إلى الشين في التصويت: (شَأْ) وما روي ـ هنا ـ بالياء: (يأْ) و(ياءْ) ربما يكون من إبدال الجيم المركبة ياءً!

(١) عبد التواب، فصول في فقه العربيّة، ١٣٢.

(٢) ينظر: عبابنة، دراسات في فقه اللغة، ٢٠٦.

(٣) ينظر: ابن دريد، جمهرة اللغة، (ياأ) ١/٢٢٨.

المبحث الثالث: الأفعال المشتقة من التصويتات ومشكل تأصيلها

تعدُّ التصويتات بمنزلة الجذور المعجميّة أو الأصول من جهة اشتقاق الأفعال منها، فجمهور التصويتات المستعملة للحيوان نجد لها أفعالاً مشتقةً ثلاثيّة ورباعيّة.

ومسائل هذا المبحث تدورُ في محور منهج اللغة في اشتقاق هذه الأفعال، ومشكل تأصيلها في مؤلفات التراث اللغويِّ القديم والحديث.

من منظور البحث يُعدُّ الخليل بنُ أحمد أوّلَ من تنبه على منهج اشتقاق الأفعال من التصويتات عندما عرَض في معجم (العين) لما وسمه: الحكايات. فالألفاظ اللغويّة التي تُشتقُّ محاكاةً لأصوات معيّنة تسمى حكاياتٍ، والأصوات المعيّنة هذه تسمى: مَحْكيات، والحكاياتُ تكون أبنيةً اسميّة وفعليّة، يقول: "ألا ترى الحكاية أنَّ الحاكي يحكي صلصلة اللِّجَام، فيقول: صَلْصَلَ اللِّجام، وإن شاء قال: صَلَّ." فالفعل الرباعيّ: صَلْصَلَ والثلاثي: صلّ عبارة عن حكايتين، والمحكِّيُّ هو صوت اللِّجام. وينسحب ذلك على الأفعال والأسماء المشتقة حكايةً لألفاظ التصويت أيضاً، يقول الخليل: "والهجهجةُ: حكايةُ صوتِ الرجل إذا صاح؛ بالأسد...وفحلٌ هجهاجٌ في حكاية شِدَّةِ هديرِه...وهَجْهجت بالناقةِ وبالجمل إذا زجرته، فقلت: هِيْجْ هِيْجْ...وإذا حكَوْا ضاعفوا هَجْهَجَ[1]. وقد ذكرنا ذلك في المبحث الأوّل الموسوم: نشأة التصويتات ومنهج وضعها اللغويّ.

ويَتنبّه الخليل ـ أيضاً ـ على أسلوب تأليف الحكايات الصوتيِّ، فيجيز أن تتألف الأبنية (الحكايات) من أصوات متقاربة في مخارجها على خلاف تأليف أبنية العربيّة، يقول: "ولو كان (الهُعْخُع) من الحكاية لجازَ في قياس بناء تأليف العرب ـ وإن كانت الخاء بعد العين ـ لأنَّ الحكاية تحتملُ من بناء التأليف ما لا يَحتمل غيرها

(١) الخليل، العين، ١/٥٥، (جه) ٣/٣٤٣.

بما يريدون من بيان الحكيِّ"(١). وملحوظته هذه تفيدنا في تفسير كثيرٍ من الأفعال المشتقة من تصويتات مؤلفة من أصوات حنجريّة أو من أصوات حلقيّة على الرغم من ثِقَل هذه الأصوات؛ لبعد مخرجها إلاّ أنَّ وضوحَ المحكيِّ وبيانه يتطلب المحافظة على أصواته حين يُحكى أو يُشتقُّ منه.

وثمةَ ملحوظاتٌ مقتضبةٌ تفيدنا ـ أحياناً ـ في فَهْمِ العلاقة الاشتقاقية القائمة بين الأفعال والتصويتات، ومن ذلك أنَّ ابنَ الأعرابيّ رَوى قول الشاعر:

جايتَها فهاجَها جُواتُه

وكان هذا المرويُّ شاهداً لبعضِ القدماء على اشتقاق الفعل (جايتَ) من دعاءِ الإبل بالتصويت (جَوْتَ جَوْتَ) أو (جوتِ) بالكسر، ولكنَّ بعض النحاة والتصريفيين القدماء أنكروا راوية الفعل (جايت) بالياء؛ لأنّ اشتقاقه من التصويت الذي سبق يوجب أنْ يكون بالواو (جاوتَ) زيادةً على مجيئه ـ في رواية أخرى ـ بالواو، وقد فسر بعضهم روايته بالياء بالمعاقبة بين الواو والياء، كقولهم: الصِّياع في الصِّواع(٢).

وما نفيدُهُ ـ هنا ـ هو أنّ القياسَ يوجبُ أن يكون الفعلُ موافقاً لتصويته المشتقّ منه باشتماله على الصوامت اللغويّة نفسِها التي اشتمل عليها التصويت دون إبدالها.

وإجماعُ القدماء على أن التصويت المستعمل ـ هنا ـ هو (جَوْت) وإن كان حجة علينا، لا يمنع من أنَّ ثمة لهجاتٍ ربّما كانت تنطقُه بالياء (جَيْت) أو أنَّ المعاقبة نفسها قد حدثت فيه بين الواو والياء، فألفاظُ اللغةِ واستعمالها أوسع من أنْ يُحاط بها.

من استقراء ما في كتب اللغة ومصادرها المختلفة نجد أنَّ قدماء اللغويين لم يُعنوا بمنهج اشتقاق الأفعال من التصويتات كثيراً، بل إنَّ منهج بعضهم يوحي بأنَّ دَرْسَ

(١) المصدر السابق، ١ / ٤٥، ٥٥.

(٢) ابن منظور، لسان العرب (جوت) ٢ / ٢١، ٢٢.

التصويتات وما يشتقُّ منها ينكره القياس اللغويُّ، وأكثر من دافع عن هذه الفكرة وردّدها ابنُ فارس في معجم: (مقاييس اللغة) ففي باب (الجيم والواو وما يثلثهما) ذكر في التصويت (جوت جوت) المستعملِ في دعاء الإبل للماء أنَّ: "الجيم والواو والتاء ليس أصلاً؛ لأنه حكاية صوت، والأصوات لا تُقاس ولا يُقاس عليها"(١). وهذا مناقض للواقع اللغوي على ما سنبينه لاحقاً.

وقد تناول قسم من الباحثين المحدثين بعض الأفعال المشتقة من التصويتات فجعلها دليلاً على نشأة أفعال العربيّة وتطورها من أصول ثنائية، ومن هؤلاءِ: مَرْمَرْجي الدُّومنكيُّ الذي ذهب إلى أنَّ ما يُسمى بالأفعال المضاعفة الثلاثية من نحو: مصّ وحَمَّ وغيرها قد نشأت من أنماط ثنائية، ودليله على ذلك أنَّ ما يقابل هذه الأفعال في اللِّسانيات الساميّة هو من نمط الثنائي، زيادةً على أنَّ اللغة العربيّة قد جرت على اشتقاق الأفعال الثلاثيّة والرباعيّة من أنماط لغويّة ثنائية، مثل أسماء الأصوات ودعاء الحيوان وزجره، على نحوِ اشتقاق الثلاثي المضاعف: (صَعَّ) من اسم الصوت الذي يُزجر به الجمل وهو (صَعْ) ومن اسم الصوت (صَهْ) اشتق الرباعي: صَهْصَه. ويخلص الدُّومنكيّ إلى أنَّ اشتقاق الأفعال قد حدث إمّا بتحريك الصوت الساكن وتشديده، وإما بتكرير الثنائي ذاته، وتحريك الآخر(٢).

وإذا كان الخليل يؤصِّلُ قواعدَ كليّةً لما يُشتقُّ حكايةً، سواء أكان من التصويتات أو من غيرها، فإن ما ذكره الدُّومنكيُّ من منهج اشتقاق الأفعال من التصويتات لا يكشف عن حقيقة اشتقاق جميع الأفعال من التصويتات؛ لاتكائه على أنماط ثنائية مختارة من التصويتات تمثّلُ أساساً لفكرة الثنائية التي ينادي بها!

وقد ذكر عبدُ الله أمين بعض الأفعال الثلاثية والرباعيّة المشتقّةِ من التصويتات،

(١) ينظر: ابن فارس، مقاييس اللغة، (جوت) ١/ ٤٩١، ٤٩٢.

(٢) ينظر في رأي الدومنكي: الصالح، صبحي، دراسات في فقه اللغة، ١٥٤، ١٥٥، وفي الردّ على آراء الدومنكي، ينظر: عبد التواب، رمضان، فصول في فقه العربية، ٣٠٠، ٣٠١.

ولم يذكر منهج اللغة في اشتقاق هذه الأفعال، بل كان يقصد إلى بيانِ أنّ هذه التصويتاتِ مصدرٌ من المصادر التي اتكأت عليها اللُّغةُ في الاشتقاق(١).

والاستقراء يؤكّد أنَّ منهجَ اللغةِ في اشتقاق الأفعال من التصويتات قد تعدَّدت صُورُه، بما يمكن إيجازُه على النحو الآتي:

المحور الأوّل: اشتقاق الأفعال الثلاثية

الأفعال الثلاثية المشتقة من التصويتات جاءت على ثلاثة أضرب، هي: الثلاثي المضاعف الذي يسميه المعجميّون الثنائي الصحيح، والثلاثي المزيد بالتضعيف، والثلاثي الذي يخلو من التضعيف.

١- الثلاثي المضاعف

يتألف هذا النمط من صوتين صامتين، الثاني منهما يأتي مضاعفاً، وقد اشتقت اللغة هذا النمطَ من تصويتات مُختلفة نوجزها على النحو الآتي:

- أَسَّ الشاةَ أو الغنم أسّاً اشتُقَّ من التصويت: إِسْ أو أُسَّ، وذكر ابن سيده أنَّ اشتقاق الفعل على هذا النحو هو القياس، على حين يرى أنَّ اشتقاق الفعل: نسَّ بالنون من التصويت السابق ليس قياساً(٢).

ويقصد بانعدام القياس مجيء الفعلِ مشتملاً على النون، والتصويت الذي اشتُقّ منه الفعل من هذا الصوت غيرُ مشتملٍ عليها.

- مجموعة الأفعال المشتقة من تطور التصويت إِخْ المستعمل في إناخة الإبل.

ذكر ابنُ دريد أنَّهم لا يقولون: "أَخَخْتُ الجملَ، وإنما يقولون: أنختُه"(٣). فالقياس يقتضي أن يكون اشتقاق الفعل من نمط الثلاثي المضاعف: أَخَّ، ولكنّه لا يذكر كيف عَدَلت اللغة عن هذا القياس، إلى الفعل غير المقيس المشتمل على

(١) أمين، عبد الله، الاشتقاق، ١٢٥-١٢٨.

(٢) ابن سيده، المخصص، ٤/ ١٢.

(٣) ابن دريد، جمهرة اللغة، (أخخ) ١/ ٥٥. وينظر: ابن منظور، لسان العرب، (أخخ) ٣/ ٣.

النون (أنختُه)؟

إنَّ طبيعة الأفعال المشتقة من هذا التصويت وما يتطوّرُ منه تفتقر إلى معالجة في مكانٍ واحد سواء أكانت ثلاثية أو غير ثلاثيّة، وهو ما سنوجزه على النحو الآتي(١):

(أ) نسبوا اشتقاق الفعل: أيَّخَ إلى التصويت (إخْ).

(ب) نسبوا اشتقاق الفعل: أَيْنَخَ إلى التصويت: (إيْنَخْ).

(ج) نسبوا اشتقاق الفعل: نَخَّ ونَخْنخَ مرّة إلى التصويت: نَخْ أو نَخّ ومرّة أخرى إلى التصويت الأصل: إخْ.

(د) نسبوا اشتقاق الفعل: هَيَّخَ إلى التصويتات: هِخْ أو هِيْخْ أو هِيخّ مرّة، ونسبوه مرّة أخرى إلى التصويت الأصل: إخْ.

وفي تأصيل القدماء لهذه التصويتات وأفعالها المشتقة منها اضطراب لا يخفى، سببُهُ التطور الذي أصاب التصويت (إخْ) ونرى أنَّ حقيقة تطوره تتَّخذُ مسارين:

الأول: إشباع كسرة الهمزة ونشوء الياء المديّة الطويلة: (إخْ ← إيخْ).

والثاني: إبدال الهمزة هاءً وإشباع كسرتها: (إخْ ← هِخْ ← هيخْ).

ومن هذين التصويتين: (إيخْ وهيخْ) تنشأ الأفعال الثلاثية المزيدة بالتضعيف: أيَّخَ وهَيَّخَ،

وقد أبقت اللغةُ على استعمالِ الفعل: (هيَّخَ) وأمّا الفعل: (أَيَّخَ) فحصل فيه تطوّرٌ صوتيٌّ يوضحه التخطيطُ الآتي:

أَيَّخَ: 'ayyaha ← أَيْـ خَ: 'ayaha ← أَيْنَخَ 'aynaha

وفي هذا التخطيط يظهر تتابعُ الحركتينِ المزدوجتينِ في بنية الفعل (أيَّخَ) فقد

(١) ينظر: المصدران السابقان، (أخخ) ١/٥٥، (أخخ) (نخخ) (هيخ) (ينخ) ٣/٣، ٦٠، ٦٥، ٦٧، قطرب، الفرق في اللغة، ١٧٧، ابن يعيش، شرح المفصل، ٢/٢٤٨.

تألفت الحركة الأولى من فتحة الهمزة والياء (شبه الحركة) وتألفت الثانية من الياء الثانية (شبه الحركة) والفتحة القصيرة بعدها على النحو (ayya) ولصعوبة تتابع هاتين الحركتين تخلّصت اللغة من شبه الحركة الثانية وبقيت حركتها (الفتحة) هكذا: (ay-a)، ولأنَّ نظام المقاطع العربيّة لا يسمح بأن يتألّف المقطع الصوتيٌ من حركة قصيرة وحدها؛ صارت اللغة إلى التعويض عن الياء الساقطة بأحد الأصوات المائعة وهو النون.

واختيار النون للتعويض عن الياء الساقطة يفسّره قولُ رمضان عبد التواب: "وليس الحذف هو السبيلُ الوحيد للفرار عن توالي الأمثال في العربيّة، بل هناك طريق آخر، وهو قلبُ أحد الصوتين المتماثلين صوتاً آخر يغلب عليه أن يكون من الأصوات المتوسطة المائعة، أو من أصوات العلة، وهو ما يُسمى بالمخالفة الصوتية Dissimilion"(١).

وعلى الرغم من المخالفة الصوتيّة بين الياءين وزيادةِ النون في الفعل (أَيْنَخَ) إلا أنّه ظلَّ يختزن في بنيته ثقلاً آخر نتج من تتابع الهمزة والحركة المزدوجة الهابطة المؤلّفة من فتحة الهمزة نفسها والياء (ay') وقد وُصف هذا التتابع بأنّه من السياقات الصوتية الصعبة، يقول يحيى عبابنة: "من المعروف أنَّ كلّاً من ظاهرتي الهمز والحركات المزدوجة من السياقات الصوتية الصعبة، فإذا اجتمعتا مَعاً في نمط استعماليٍّ واحد، فإنّ الأَمر يغدو أكثر صعوبةً"(٢).

وللتخلص من اجتماع الهمزة والحركة المزدوجة في الفعل: أَيْنَخَ فإنَّ اللغة قد أسقطت الهمزة والحركة المزدوجة معاً، فصار الفعل على النحو: (نَخَ: naha) وهو أمر غير مقبول في صيغ الأفعال العربيّة أن تتألفَ من صوتين صامتين فقط؛ لهذا عُوِّض عن هذا السقوط بتشديد الخاء فصار الفعل من نمط الثلاثي المضاعف: نَخَّ nahha، ومن هذا الفعل نشأ الفعل الرباعي: نَخْنَخَ nahnaha بتكرير النون بعد فكِّ التضعيف.

(١) عبد التواب، بحوث ومقالات في اللغة، ٥٥.

(٢) عبابنة، دراسات في فقه اللغة، ١٤٦.

ونجملُ هذا الشرح بالتخطيط الصوتي الآتي:

أَيْنَخَ: 'aynaha ← نَخَ naha ← نَخَّ: nahha ← نَخْنَخَ: nahnaha

ونلحظ ـ بعد ذلك ـ أنَّ تطور الفعل ووصوله إلى الصورة التي تخلوا من الهمزة (نَخَّ) قد هيّأهُ لاشتقاق الفعل الرباعي منه، وهذا ما نلحظه في تصويتات تخلو من الهمزة، ومن ذلك قولهم: بسْ أو بسٌّ ـ بتثليث الباء ـ فقد اشتق منه الفعل الثلاثي بصورته المضاعفة: بَسَّ الغنم والإبل، والفعل الرباعي: بَسْبَسَ[1].

– أَهَّ، يشتقُّ هذا الفعل من التصويت للإبل بقولهم: أَهِ[2].

وفي هذا الفعل ملحوظتان، إحداهما: أنَّه الفعلُ الثلاثي ـ من بين الأفعال المشتقة من التصويتات ـ المؤلّفُ من صوتي الحنجرة: الهمزة والهاء.

الثانية: تتعلّق بتأصيل (الهمزة والهاء) في معجم (مقاييس اللغة) فقد ذكَر ابن فارس أنهما ليس بأصل واحد؛ لأنَّ حكايات الأصوات ليس أصولاً يقاس عليها، ولكنه استدرك بقوله: ولكنَّهم يقولون: أَهَّ أهّةً وآهةً"[3]. وينبغي له أن يعترف بأصالتهما بدليل الاشتقاق منهما.

٢– الثلاثي المزيد بالتضعيف

اشْتُقَّ الفعل الثلاثي المزيد بالتضعيف من تصويتات مكوّنة من ثلاثة أصوات أوسطها ممّا يسميه المحدثون (أشباه الحركات) التي تُكوِّن في بنية التصويتات حركاتٍ مزدوجةً.

وقد جاءت الأفعال المزيدة بالتضعيف على النحو الآتي:

– حَوَّبَ، ويشتقُّ من التصويت الذي ذكرناه في مواضع مختلفة وهو (حَوْب) الوارد في زجر الإبل.

(١) ابن دريد، جمهرة اللغة (بسس) ١/ ٦٩، ابن منظور، لسان العرب، (بسس) ٦/ ٢٧، ٢٨.

(٢) قطرب، الفرق في اللغة، ١٧٨.

(٣) ابن فارس، مقاييس اللغة، (أه) ١/ ٣٢.

– عَوَّه، ذكره الخليل مشتقاً من التصويت للجحشِ بـ: عَوْهِ، يقول: "عَوّهت بالجحشِ تعويهاً إذا دعوته ليلحق بك. تقول: عَوْهِ عَوْهِ"(١).

– أَيَّهَ وهَيَّـهَ، ذكر هذين الفعْلين قطربٌ بقوله: "وقالوا في المهر: هايْ هايْ، وأَيَّهتُ به، وهَيَّهتُ به"(٢).

والذي نراه أنّ التصويت الذي ذكره قطرب لا يفسِّر اشْتقاق الفعلين (أيَّهَ) و(هيَّـهَ) منه، فالأصل في الفعل المشتقِ من هذا التصويتِ أن يكون على نمط الثلاثي المضاعف (هَيَّ) أو على نمط الرباعي (هَيْهَيَ) قياساً على كثيرٍ من الأفعال المشتقة من تصويتات مماثلة.

وفي موضعٍ آخر من كتاب (الفرق في اللغة) ذكر قطربٌ الفعل (أيَّهَ) مشتقاً من التصويت للإبل بـ: (أيو إيهِ) لذلك نرجّح اشتقاق الفعل (أيَّه) من الجزء الثاني من التصويت المركب وليس من التصويت (هايْ)؛ ولأن جمهور التصويتات كان استعماله مشتركاً في ضروب مختلفة من الحيوان فمن الوارد استعمال التصويت (إيه) تصويتاً للمهر أو للخيل، ولثقل الهمزة فإنها تُبدل هاءً، وهذا ما نلحظه لدى أبي حيان الأندلسي، فقد ذكر استعمال التصويت: (هَيْهِ) للإبل(٣)، دون أن يذكر فعله المشتق منه، وفعله هو الذي ذكره قطرب أي: (هَيَّهَ). بعد إبدال الهمزة هاءً.

وفي معجم (لسان العرب) نجد أنَّ اشتقاق الفعل (أَيَّهَ) منسوبٌ إلى تصويت آخر، يقول ابن منظور: "وقد أيّهتُ به تأييهاً: يكون بالناسِ والإبل، وأَيَّهَ بالرجلِ والفرس: صوّت، وهو أنْ يقول لها: ياهْ ياهْ"(٤).

وقد أورد ابن منظور في موضع آخر من (لسان لعرب) الفعل الرباعيّ المشتقّ من

(١) الخليل، العين، (عوه) ٢/١٦٩.

(٢) قطرب، الفرق في اللغة، ١٧٢.

(٣) الأندلسي، أبو حيان، ارتشاف الضرب، ٥/٢٣١٢.

(٤) ابن منظور، لسان العرب (أيه) ١٣/٤٧٥.

التصويت (ياهْ ياهْ) بقوله: "وَيهْيَهَ بالإبل يَهْيَةً ويَهْياهاً: دعاها بذلك، وقال لها: ياهِ ياهِ"(١).

بل إنّ ما أوردهُ الصّاحبُ بنُ عبّاد في معجم: (المحيط في اللغة) يؤكّد ما ذهبنا إليه، ففيه أنَّ: أَيَّهَ بالكلاب والإبل إذا قال لها: إيه إيه. وقد ذكر ـ أيضاً ـ أن الفعل الثلاثي أَوَّهَ بمعنى أيَّهَ(٢).

ولعلّ ما ذُكر ـ هنا ـ من أنَّ الفعل (أَوَّهَ) بمعنى (أَيَّهَ) يدعونا إلى القول بأنَّ التصويت (إيه) الذي رجحنا اشتقاقَ الفعل: (أيَّهَ) منه كان في الأصل مستعملاً بالواو هكذا: (أَوْه) ومنه اشتقّت اللُّغة الفعلَ (أوَّه) ولصعوبة الحركة المزدوجة الواويّة (aw) في هذا التصويت أُبدلت الواو ياءً على النحو المرويّ: (أَيْه) و(إيه) وقد اشتُقَّ الفعل (أيَّه) من هذا التصويت، ويظهر أنَّ همزته كانت تُبدل هاءً على النحو المرويِّ (هَيْهِ) وإليه ننسبُ اشتقاق الفعلِ (هيَّه) باطمئنان.

وقد ذكرنا في موضوع الهمزة مع الحركة المزدوجة التصويت (أوْ) المستعمل في زجر الخيل، فلعله هو نفسه التصويت (أَوْه) الذي زيدت فيه الهاء.

– دَهَّعَ، نُسب اشتقاق هذا الفعل واشتقاق الفعل غير المضاعف: دَهَعَ والرباعي: دَهْدَعَ إلى التصويتين: دِهاعِ ودَهْداعِ المستعملين في زجر الغنم، وورد في معجم (لسان العرب) أنّ: دَهَعَ الراعي بالغنم ودَهَّع ودَهْدَعَ دَهْدَعَةً زجرها بذلك، ودَهْدَعَ بها صوّت(٣).

وذكر قطربٌ فعلينِ آخرين في دعاء المعَزَ بقوله: "وقالوا ـ أيضاً ـ في الدعاء للمِعْزى: داعْ داعْ، وقد دَعْدَعْتُ ودادعْتُ"(٤).

(١) المصدر السابق، (يهيه) ١٣ / ٥٦٤.

(٢) ابن عباد، الصاحب، المحيط في اللغة، ١ / ٣٢٦.

(٣) ابن منظور، لسان العرب (دهع) ٨ / ٩٢.

(٤) قطرب، الفرق، ١٧٢.

والذي يظهرُ أنَّ هذه الأفعال قد نشأت من التصويت (دَهْ) المستعمل في زجر الإبل وهو التصويت نفسه المروي (داهِ) الذي ينشأ من إشباع الفتحة القصيرة، وقد نشأ من هذا التصويت صورتان استعماليتان بإبدال الهاء الحنجرية عيناً لوضوحها السمعيِّ على النحو: (دَعْ) و (داعِ)، ولعلَّ بعض اللهجات كانت تستعمل هذه التصويتات قبل إبدال الهاء عيناً وبعده على النحو: (دَهْ دَعْ) و (داهِ داعِ) ويؤكّد ذلك روايتهم التصويتات بالصورة: (دِهاعِ) و (دَهْداعِ) وقد تأثرت الأفعال المشتقّة بهذا الاستعمال المزدوج فيما يبدو، فالفعل: دَعْدَعَ، يشتقُّ بتكرير الدال والعين في التصويت (دَعْ) بعد إبدال الهاء عيناً، وأمّا الصورة المرويّة للفعل (دادع) فتنشأُ من إسقاط عين الفعل (دَعْدَعَ) وإشباع فتحة الدال الأولى، هكذا: دَعْدَعَ ← دَ - دَعَ ← دادَعَ.

وأمّا الأفعال الناشئة من الاستعمال المزدوج للتصويتات -قبل إبدال الهاء عيناً وبعده- فهي: دَهَعَ ودَهَّعَ ودَهْدَعَ، فالفعلُ (دَهَعَ) يُشتقُّ من التّصويت (دَهْ دَعْ) بإسقاط الدال الثانية، ويُصار إلى استعماله بمضاعفة الهاء، وهو ما يؤدّي إلى نشأة الثلاثيّ المزيد بالتضعيف (دَهَّعَ). وأمّا الفعل الرباعيُّ (دَهْدَعَ) فمشتقٌّ من التصويت السابق (دَهْ دَعْ) دون إسقاط أيِّ صامتٍ من صوامته.

- يَعَّطَ، ذكر ابنُ منظور هذا الفعلَ مع جملة أفعال مشتقّةٍ من التصويت الذي سبق الحديثُ عليه في تقصير ألف المدّ الطويلة: (يا عاطِ ← يَعاطِ) فزيادةً على الفعل السابق اشتُقّت الأفعال: أيْعَطَ وياعَطَ، وأما ابنُ فارس فلم يذكر إلاّ الفعل (أيْعَطَ)[1].

٣- الفعل الثلاثي غير المضاعف

ويمكن تقسيم هذا النمط من الأفعال المشتقة على قسمين: الأفعال التي تشتق

(١) ابن منظور، لسان العرب (يعط) ٧ / ٤٣٤، ٤٣٥، وينظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (يعط) ٦ / ١٥٧.

من تصويتات منصوص عليها، والأفعال التي ليس لها تصويت تشتقُّ منه أو أنّه مُختلف فيه.

(أ) الأفعال المشتقة من تصويتات منصوص عليها

واشتقاق هذا النمط من الأفعال لا يعدو نقل صوامت التصويتات وتأليفها مَعَاً وفاقاً لأبنية الفعل الثلاثي. وقد جاءت على النّحو الآتي:

– جَطَحَ، والتصويت الذي يوافقه في صوامته هو: جِطِحْ الذي ذكرناه سابقاً في زجر الغنم، وقد نصَّ الخليل على الفعل (جَطَحَ) المشتق من هذا التصويت بقوله: "يقال للعنز عند الحليب: جِطِحْ، أي قُرّي فتقرّ، قال زائدة: جَطَحَ السَّخْلَةَ إذا زُجرتْ ولا يُقال للعَنْزِ."

ونقل ابن منظور عن الأزهريِّ أنَّهم يستعملون التصويت (جِطِح) في زجر الغنم دون اشتقاق فعل منه(١). وما ذكرناه عن الخليل يخالف رأي الأزهري.

– عَدَسَ، اشْتُقَّ هذا الفعل من زجر البغل بـ: (عَدَسْ) ذكر ذلك أبو حيان بقوله: "عَدَسْتُ البغلَ، إذا قلت له: عَدَسْ"(٢).

– أَسَدَ، ذُكر هذا الفعل أبو حيان الأندلسيُّ مُشتقّاً من التصويت للسِّنَّور (القط) لتحريضه بقولهم: أُسُدْ أُسُدْ، في حين ذهب قطربٌ إلى أنَّه تصويت لدعاء الكلب دون أن يذكرَ اشتقاقَ فعلٍ منه(٣).

وقد روى ابنُ منظور فعلين آخرين دون أن يَنسب اشتقاقهما للتصويت السابق، وهما: أَوْسَدْتُ الكلب بالصيد وأَسَّدته بمعنى إغرائه بالصّيد؛ لأنه يُدعى ثُمّ يُوسَدُ فَوضِع مَوْضِعَهُ(٤). فكأنّ اشتقاق الفعلين ـ هنا ـ من التوسيد، والأمر نراه على

(١) الخليل، العين (جطح)، ٣/ ٧١، ابن منظور، لسان العرب، (جطح) ٢/ ٤٢٤.

(٢) الأندلسيّ، أبو حيان، ارتشاف الضرب، ٥/ ٢٣١٣.

(٣) قطرب، الفرق في اللغة، ١٨٤، الأندلسي، أبو حيان، ارتشاف الضرب، ٥/ ٢٣١٦.

(٤) ابن منظور، لسان العرب (شلا) ١٤/ ٤٤٣.

خلاف ذلك، فمن الراجح أنَّ الفعل (أَسَّد) مشتقٌ من التصويت نفسه (أُسُد) بمضاعفة السين ونسقه على أبنية الفعل، وكذا الحال في الفعل الثاني (أوْسَد) يترجح اشتقاقُه من التصويت الذي سبق، إلا أنَّ الواو فيه تمثّل الضمة القصيرة التي تحرّك بها الهمزة (أُسُدْ) تحوّلت إلى شبه حركة في الفعل.

(ب) الأفعال التي لا تصويت لها أو أنّه مختلف فيه

وقد جاءت أفعال هذا القسم على النحو الآتي:

- خَسَأَ، ذكره ابن سيده وغيره في طرد الكلب، يقول: "خَسأْتُ بالكلبِ فخسَأَ: أبعدته، ومنه قوله تعالى: "خاسئين" [البقرة/ ٦٥] أي: مبعدين، وخسأتهُ أَخْسَؤُهُ خسْأً: طردته." وذكر قطرب أن: خَسَأت الكلب وأخسأته لغتان(١).

ولم تذكر معجمات اللغة ومصادرها المختلفة مصدر اشتقاق هذا الفعل، وفي لهجات البادية الأردنية يطردون الكلب بقولهم: إِخْسْ.

ويبدو أنَّ الفعل (خَسَأَ) أو(أخْسَأَ) مشتقٌ من تصويتين يتكرر استعمالهما، وهما: (إِخْ) الذي سبق بيانه في زجر الإبل لتبرك، و(سَأْ) الذي ذكر في زجر الحمار ليشرب، ومن ثَمَّ تنوسي هذا الأصل فصار مجموع هذين التصويتين فعلاً هكذا: (أخْسَأَ) ومن ثَمَّ تسقط الهمزة من التصويت (إِخْ) لينشأ الفعلُ (خَسَأَ).

- نَعِتَ، ذكره قطرب في زجر الضأن بقوله: "وفَعْفَعَ بها فَعْفَعةً، ونَعِتَ بها نعيتاً." ولم يذكر تصويتاً يمكن أن يكون تكأةً لاشتقاق هذا الفعل، وفي معجم (لسان العرب) ما يمكن به تفسير نشأة هذا الفعل، فقد أورد للجدي أسماء مثل: العُتْعُت أو العَتْعَت والعُطْعُط، يقولُ: "وعَتْعَتَ الراعي بالجدي: زجره، وقيل: عَتْعت به: دعاه، وقال له: عَتْعَتْ"(٢).

---

(١) ابن سيده، المخصص ٤ / ١٠٩، قطرب، الفرق في اللغة، ١٨٣، وينظر: الأصمعي، كتاب الفرق، ١١٠.

(٢) قطرب، الفرق في اللغة، ١٨٢، ١٨٤، ، وينظر: ابن منظور، لسان العرب، (عتت) ٢ / ٥٩.

ومن هذه النصوص نخلص إلى أنَّ الفعل الثلاثي: (نَعِتَ) قد اشتُقَّ بزيادة النون في أوّل التصويت: عَتْ المستعمل في زجر الجدي، وهذا لم يمنع نشأة الفعل الرباعي (عتعت) أيضاً من التصويت نفسه قبل زيادة النون، من طريق تكرير مكوّنيه الصامتين.

- نَصَأَ ونَدَهَ، ورد هذان الفعلان في زجر الإبل أو الناقة، وفي معجم (المخصص) أنَّ: "ندهتُ الإبل أندَهُها نَدْهاً: زجرتها، وقال: نصأتُ الناقةَ أنصَؤُها نصْأً كذلك." وفي معجم (لسان العرب) أنَّ: "النَّدْهُ: الزجر بصَهْ ومَهْ"(١).

وذكر ابن دُريد أنَّ معنى الفعل (نَدَه) هو الزجر والكفُّ عن الشي، أو أنّه التصويت على عمومه؛ لقول ابن منظور: "نده الرجل يَنده نَدْهاً إذا صوّت"(٢). ولكنَّ ثمة ما يبقى اشتقاق الفعلين: نَصَأ ونَدَه مرهوناً بوجود تصويتات كانت مستعملة في التصويت للحيوان؛ لأن أغلب المعاني المستعمل لها الفعلان تدور في فلك زجر الحيوان، ولا نتوقع أن يكون التصويتانِ (صَهْ ومَهْ) المذكوران في معجم (لسان العرب) هما أصل اشتقاق الفعلين (نصأ ونده) وذلك لأنَّ هذين التصويتين قد استوفيا اشتقاق الفعل منهما بشهادة القدماء أنفسهم، إذ ذكر الخليل اشتقاق الفعل الرباعي: (صَهْصَهْتُ) من الزجر: (صَهْ) وذكره قطرب رباعياً -أيضاً- بالياء (صَهْصَيْتُ) وأما التصويت: (مَهْ) فقد استوفى فعله الرباعي: (مَهْمَهَ) أيضاً كما يذكر السّرقسطيُّ(٣).

إن ما يمكن الاطمئنان إليه هو أنَّ الفعل (نَدَه) قد نشأ من التصويت (دَهْ) المستعمل في زجر الإبل وغيرها، زيدت له النون في أوله. ويزيدنا اطمئناناً إلى حصول هذه النشأة بتلك الطريقة ما يلوح من رأي لقطرب مفادُهُ أن: "فَدَهَ الرجلُ

(١) ابن سيده، المخصص، ٣ / ٣٨١، ابن منظور، لسان العرب، (نده) ١٣ / ٥٤٧.

(٢) ابن دريد، جمهرة اللغة، (نده) ٢ / ٦٨٧، ابن منظور، لسان العرب، (نده) ١٣ / ٥٤٧.

(٣) ينظر: الخليل، العين (صه)، ٣ / ٣٤٥، قطرب، الفرق في اللغة، ١٦٧. السرقسطي، الأفعال، ٤ / ٢١٤.

إذا قال: دَهْدَهْ ودَهْ." فلعل الفعل (فدَهَ) الوارد اشتقاقه من التصويت (دَه) فيه تصحيف وتحريف والمقصود هو (نَدَه) بالنون، إذ إنَّ الجذر اللغوي (ف د ه) مهمل غيرُ مستعمل في معجمات اللغة ومصادرها التي عدنا إليها(١).

وأما الفعل (نَصأ)، فمن الراجح أنه قد اشتق من التصويت: (سَأْ) المستعمل في زجر الحمار والإبل وغير ذلك بعد إبدال السين إلى الصاد وزيادة النون في أوله.

المحور الثاني: الأفعال الرباعيّة

يتناول البحث ـ هنا ـ موضوعاتٍ ثلاثةً تدور في فلك اشتقاق الأفعال الرباعيّة من التصويتات، ففي الموضوع الأول بيانٌ لأثر التصويتات المهموزة في اشتقاق الأفعال منها، وفي الثاني توضيحٌ لبعض الأفعال المشتقة من تصويتات مشتملة على الحركة المزدوجة، وفي الموضوع الثالث إيجاز لتأصيل بعض الباحثين المحدثين لأفعال مشتقة من التصويتات.

١- التصويتات المهموزة

يتأثر اشتقاق الفعل الرباعي من التصويتات المهموزة على النحو الآتي:

(أ) مجيء الفعل مقلوباً قلباً مكانياً أو شاذاً

ومن ذلك قولهم:

- رَأْرَأَ بالغنم، وقد نُسِب اشتقاقُ هذه الفعل إلى التصويت: أَرْ أو أَرْ أو إِرْ، وذكر ابن منظور أنَّ قياس الفعل أن يكون على نحوٍ من: أَرْ أَرَ، وفسّر ورودَهُ على: رَأْرَأَ بالشذوذ أو القلب المكاني(٢). والقياس الّذي ذكره ابن منظور يعني أن تُنسقَ أصواتُ الفعل على نحوٍ موافق لترتيبها في التصويت المشتق منه دون قلبٍ لها.

(١) قطرب، الفرق في اللغة، ١٧٦، وينظر: السرقسطي، الأفعال ٤ / ٤٠ وما بعدها، ابن منظور، لسان العرب ١٣ / ٥٢١.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، (رأرأ) ١ / ٨١، ٨٢.

(ب) العدول عن اشتقاق الأفعال من التصويتات

ومن ذلك العدولُ عن اشتقاق الفعل الرباعي وحتى الثلاثي من التصويتات: (أوْ) و(أيْ) و(أَحْ) والتصويت: (أُهِيبْ) المستعمل في زجر الفرس، وقد سبق بيان استعمالها في موضوع الهمزة مع الحركة المزدوجة(١).

(ج) اشتقاق الفعل الثلاثي دون الرباعيِّ

ومن ذلك الفعلُ: أَسَّ المشتق من زجر الغنم: أُسَّ أو إِسْ. ولا يمنع القياسُ اشتقاق الفعل الرباعيِّ: أَسْأَسَ، إلاّ أنّه قد اشْتُقَّ منه الثلاثي الذي سبق، والثلاثي (نسّ) بالنون، ولم يشتقّ منه الرباعيُّ.

(د) إبدالُ الهمزة هاءً

ومن ذلك ما ورد في الفعل: هسْهَسْت الغنم، وقد نَسب اشتقاقه قطربٌ إلى التصويت (هُسْ) والواضح أنّه التصويت (إس أو أُس) الذي أُبدلت همزته هاءً ومن ثمَّ اشتق الفعل الرباعي منه(٢).

ومن الأمثلة التي سبقت يظهر أنَّ اللغة لم تشتقّ أيَّ فعل رباعيٍّ تتكرر فيه الهمزة بحيث تكون أولَ أصواته وثالثَها. وإذا ضمَمْنا هذه الملحوظة إلى اشتقاق الفعل: رَأْرَأَ الذي جاء مقلوباً من الأصل القياسيِّ (أرْأَرَ) غير المستعمل اتّضح بما لا يقبل الشكَّ أنَّ العلةَ تكمنُ في وقوع الهمزة أولَ أصوات الفعل وثالثها. وتأكيداً لهذا الاستنتاج، نسوق أمثلة الأفعال الرباعيّة الآتية:

- يأْيأَ بالإبل، إذا زجرها بالتصويت: (أيْ) وذكر ابن منظور أنَّ الفعل مقلوب قلباً مكانياً(٣). وإذا جاز هذا القلب فهو عدول عن الفعل الرباعي القياسيّ: (أيْأَيَ) الذي تتكرر فيه الهمزة أولاً وثالثاً، بيد أنّا نرى أن الفعل (يأيأ) مشتقٌّ من

(١) الأندلسي، أبو حيان، ارتشاف الضرب، ٥/٢٣١٥.

(٢) قطرب، الفرق في اللغة، ١٨٠.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، (يايا) ١/٢٠٢، وينظر: قطرب، الفرق في اللغة، ١٨١.

تصويت آخر تقع فيه الهمزة ثانية وهو التصويت: (يَأْ) الذي تُشبع فتحته القصيرة فيصير على النحو: (ياء) وقد سبق الحديث عليه.

- هَأْهَأَ وحَأْحَأَ وخَأْخأَ، وهي أفعال رباعيّة جرت اللغة على اشتقاقها من تصويتات تقع الهمزة فيها ثانيةً وهي: هَأْ وحَأْ وخَأْ، واشتقاق الرباعي صيّر الهمزة في الأفعال ثاني الأصوات وآخرها، ولمَ يصيّرها أولاً وثالثاً[1].

وتفسيرنا لهذه المسألة يقومُ على أنَّ اشتقاق الفعل الرباعي من التصويتات بمجيء الهمزة أولَ أصوات هذه الأفعال وثالثها يؤدي إلى أنْ تكون الهمزة المتوسطة بموضعٍ تُستثقل فيه فَيُصار إلى نقل حركتها إلى الساكن قبلها، ومن ثَمَّ تُحذف قياساً على لهجات عربيّة تنحو هذا النحو في أفعال من نمط يَرَى وأصلُهُ: يَرْأَى، وسَلْ وأصْلُهُ اسْأَلْ، فلو أنَّ الأفعال المشتقة من التصويتات جاءت الهمزة فيها أوّلاً وثالثاً على نحوٍ من اشتقاق الفعل الربّاعي المفترض: أرْأَرَ من التصويت (إرْ) لصار هذا الفعل بعد حذف الهمزة الثانية ونقل حركتها إلى الساكن قبلها على الصورة (أرَرَ) وبالإدغام يتحول إلى أرَّ، وهي صورة فعليّة تكاد تطابق التصويت الذي اشتق منه الفعل.

٢- التصويتات المشتملة على الحركة المزدوجة

إنَّ اشتقاق الأفعال الرباعيّة من التصويتات المشتملة على الحركات المزدوجة يؤكّد مراحل تطور هذه الحركة في بنية التصويتات، ويشير إلى شيءٍ من اضطراب تأصيل بعض هذه الأفعال لدى القدماء، وتتضحُ هذه المسائل ممّا ذكره القدماءُ في الأفعال المشتقة من التصويتين: حَوْ وحَوْب.

وأما ما يشتق من التصويت: حَوْ المستعمل في زجر المَعَز أو الغنم وما يتطور عنه

(١) ينظر: الخليل، العين، (حأ) ٣/٣١٦، ٣١٧، الأستراباذي، شرح كافية ابن الحاجب، ٣/٢٠٤. الأندلسي، أبو حيان، ارتشاف الضرب، ٥/٢٣١٦.

فنوجزه بالآتي(١):

– حَوْحَيْت، ويُشتقُّ من التصويت: حَوْ أو أَحَوْ أو أُحُو.

– حَأْحَأْتُ وحاحَيْتُ، ويشتقاق من التصويت: حَأْ أو أُحُوْ، ونُسب اشتقاقهما مرّة أخرى إلى التصويتات: حُؤْ وحُوْ وحَيْ وحِيْ.

– حاحا ويشتق من التصويت: حاءِ، وإذا أُسْنِد إلى الضمير فإن الألف تُبدل ياءً على النحو: حاحيتُ.

وذهَب السيوطيُّ في باب: (اجتماع الأمثال مكروه) إلى القول بأن الألف في الفعل: حا حا زيدٌ تنقلب ياءً على النحو، حِيحا زيدٌ؛ كراهة اجتماع الأمثال. وقد وافق رمضان عبد التواب على ما ذهب إليه السيوطيُّ، وعدّ قلب الألف ياءً من المخالفة الصوتية(٢).

وذكر ابن جنّي أصالةَ الألف في التصويت: حاءِ وانقلابها عن الياء في الفعل المشتق منه: حاحيت. وبإبدال الخاء من الحاء في التصويت (حَأْ) والفعل المشتق منه (حَأْحَأَ) يظهر الفعل الرباعي: خأخأتُ، ولكنَّ ابن دُريد يعد الخاء مع الهمزة: (خ أ خ أ) من مهمل اللغة(٣)، والأمر على خلافِ ما ذكر.

ومثل هذا التأصيل لا يكشف حقيقة تطور التصويتات، وهذا ما يؤدي إلى نسبة اشتقاق الأفعال إلى غير تصويتاتها الأصلية.

ونرى أنَّ أصل هذه التصويتات هو التصويت: حَوْ الذي تكوّنت فيه الحركة المزدوجة المؤلفة من الفتحة والواو (haw) ومن هذا الأصل يشتق الفعل الرباعي المفترض: حَوْحَوْتُ، ولصعوبة تتابع الحركات المزدوجة الهابطة وللمخالفة بينهما

(١) ابن جنّي، الخصائص، ٣/٢٣٣، ٢٣٤، الأندلسيّ، أبو حيان، ارتشاف الضرب، ٥/٢٣١٦.

(٢) السيوطيُّ، جلال الدين عبد الرحمن، الأشباه والنظائر، ١/٢٦، عبد التواب، بحوث ومقالات في اللغة، ٥٥، ٥٦

(٣) ابن جنّي، الخصائص، ٣/٢٣٣، ٢٣٤. وينظر: ابن دُريد، جمهرة اللغة، (خاخا) ١/٢٢٦.

تُبدل الواو الثانية ياءً على النحو (حَوْحَيْتُ) وهو نمطٌ مستعمل في اللُّغة .

ويتطور التصويت الأصل : (حَوْ) إلى الصورة المرويّة في المصادر اللغويّة : (حَيْ) للخلاص من الحركة المزدوجة الهابطة الواويَّة، بإبدال الواو ياءً، وبعد ذلك يَعْرض للحركة المزدوجة اليائية في التصويت : (حَيْ) انكماش فتنطق ياء طويلة مُمالة، (é) ولعلّ الفعل الذي ذكرَه السيوطي وهو (حِيحا) يمثل هذا الانكماش المنطوق في التصويت .

وفي آخر مرحلة من مراحل تطور الحركة المزدوجة يصل التصويت (حَيْ) إلى مرحلة الفتح الخالص بإبدال الياء الممالة ألفاً على النحو : (حا) ومن هذا التصويت ينشأ الفعل (حاحا) الذي تنقلبُ ألفه الثانية ياءً للمخالفة بين الألفين على النحو : حاحيتُ .

وقد يتطوّر التصويت : (حَيْ) بإشباع فتحته القصيرة فيصير على النحو : (حاي) وللخلاص من الحركة المزدوجة الهابطة المؤلفة من ألف المد الطويلة والياء (áy) تبدل الياء همزة على النحو : (حاء) أو تُبدل همزةً دون إشباع الفتحة القصيرة على النحو : (حَأ) ومن الصيغة المهموزة هذه ينشأ الفعل الرباعي : حَأْحَأَ زيادة على ما ذكروه من قولهم : أُحْ أُحْ لدعاء الكبش للسفاد، ولم يُذكر اشتقاق أيِّ فعل منه، ويظهر أنّه الصيغة المقلوبة من التصويت (حَأْ)، وقد ذكر قطرب أنَّ الخاء تبدل من الحاء على النحو (خُوْ) ويشتق من هذا التصويت الفعل الرباعي : خَأْخأَ[1] .

والتّخطيط الآتي يوضّح مراحل تطوُّر التّصويت (حَوْ) والأفعال المشتقة منه :

(١) قطرب، الفرق في اللغة، ١٨١، ١٨٣ .

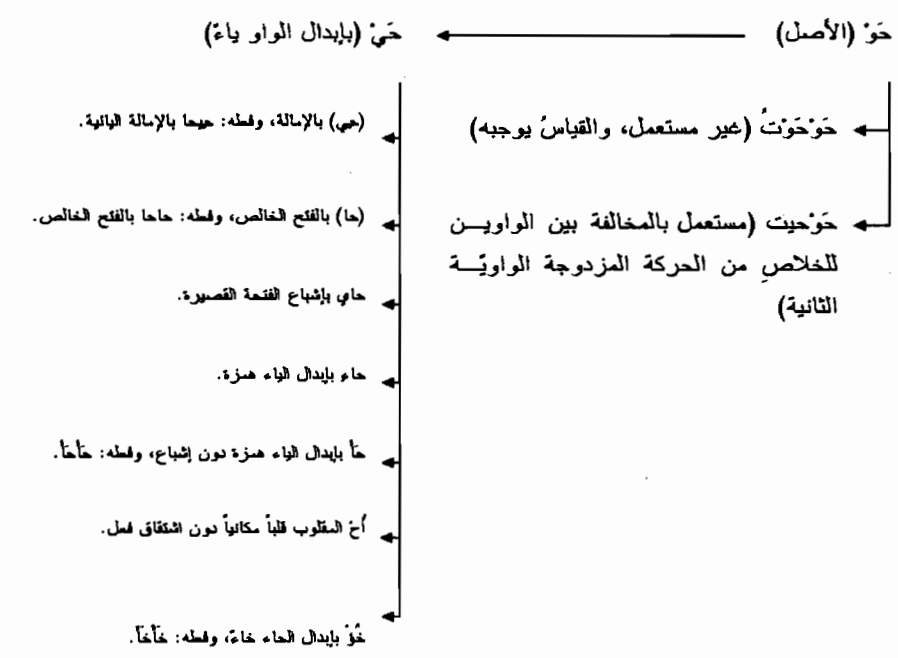

أمّا الأفعال المشتقة من التصويت (حَوْب) فقد جاءت على النحو الآتي :

– حَوَّبَ، لقولهم: حوَّبتُ بالجمل تحويباً. وقد ذكرناه في الأفعال الثلاثية المزيدة بالتضعيف.

– حَبحْحَب الرباعي، لقولهم ـ أيضاً ـ: حَبْحبتُ بالجمل حبْحاباً.

ونسبةُ اشتقاق الفعل الرباعي حَبْحَبَ إلى التصويت : حَوْب ليست دقيقة خلافاً لما ذكر ابنُ منظور؛ لأنَّ هذا التصويت يتطور بسبب وجود الحركة المزدوجة الهابطة المؤلفة من الفتحة والواو (aw) وقد روي التصويت السابق بصور مختلفة تشهد بتطوّره، ومنها قولهم: حَبْ وحَبٍّ وحابْ وحَابٍّ(١).

وقد بَيّنا في موضوع الحركة المزدوجة أن التصويت : حَوْب يتطور بإسقاط الواو للتخلُّص من الحركة المزدوجة فيصير التصويت على النحو المروي : (حَبْ)، ومن ثَمَ تُشبعُ الفتحة القصيرة على النحو : (حَوْبحَبْحاب).

(١) ابن منظور، لسان العرب، (حبحب) ١ /٢٩٨ .

ومن هذه الصورة (حَبْ) يشتق الفعل الرباعي: حَبْحَبَ وليس من الصورة المشتملة على الحركة المزدوجة (حَوْب) لأنَّ الفعل الثلاثي المزيد بالتضعيف (حَوَّبَ) هو المشتق منها على التحقيق.

ثمةَ ملحوظةٌ تتعلّقُ بضابط اشتقاق الأفعال الرباعيّة من التصويتات، فأكثرُ ما يتّضحُ من ذلك أنّ اللغةَ تعدل عن اشتقاق الأفعال الثلاثية من هذه التصويتات إلى الرباعيّة لتجنُّب بعض مواطن الثِّقل في البنية الصوتية للأفعال، ومن ذلك أنَّها في التصويتات المؤلّفة من صامتين ثانيهما من أصوات الحنجرة أو الحلق تميل إلى اشتقاق الأفعال الرباعيّة منها دون الثلاثيّة، على نحو اشتقاق الفعل الرباعيِّ: سَعْسَعَ من زجر المعز بالتصويت (سَعْ سَعْ) والفعل عَهْعه من زجر الضّأن بالتصويت (عَهْ عَهْ) والأفعال: شَأْشَأَ وسَأْسَأَ وجَحْجَح من التصويتات المستعملة في زجر الحمار والضّأن وهي: شأ وسَأْ وجَحْ[1].

فلو أنَّ اللغة لم تشتقّ الأفعال الرباعيّة من التصويتات التي سبقت لاضْطرّت إلى اشتقاقِ الأفعال الثلاثية المضاعفة بالضرورة على نحوٍ من: سَعَّ وعهّ وشأّ وجحّ، وهذا يعنى مضاعفة أصوات الحنجرة والحلق الثقيلة، وهو أمر تتجنبه اللُّغةُ في كثيرٍ من الأحيان؛ لثقل هذه الأصوات وصعوبة إدغامها. وقد تقرَّر لدى سيبويه وغيره من القدماء بأنَّ الإدغام في الأصوات الحلقية ليس أصلاً ولا بمطّرد[2].

وقد بيّن الأستراباذيُّ قلَّة المضاعف من الهاء، نحو كَهّ وفهّ، وانعدام المضاعف المهموز، وقلة المضاعف من العين من نحوْ: دعّ وكعّ، وخلص إلى أنّ أصوات الحلق ليستْ أصلاً في التَّضعيف، وأنَّ إدغامها يثقلُ على الألسنة[3].

(١) ينظر: قطرب، الفرق في اللغة، ١٧١، ١٨٠، ابن منظور، لسان العرب (سع) ٨/١٥٦، (عهه) ١٣/٥٢٠.

(٢) ينظر: سيبويه، الكتاب، ٤/٤٤٦-٤٥١.

(٣) الأستراباذيّ، رضي الدين، شرح شافية ابن الحاجب، ٣/٢٧٥-٢٧٨.

وقد عبّر ابنُ دُريد عن عدول اللغة عن اشتقاق الأفعالِ الثلاثية إلى الرباعيّة بالإلحاق، ففي حديثه على الفعل الثلاثيّ (جَهَّ) الذي ينبغي اشتقاقه من التصويت (جَهْ) المستعمل في زجر السِّباع والإبل، قال: "أُلحق (جَهَّ) بالرباعيِّ، فقيل: جَهْجَهَ. يُقال: جَهْجهتُ بالسَّبُع وهجهجتُ به ... ويُقال: جهجهتُ بالإبل وهجهجتُ بها، إذا زجرتَها"(١).

ومن جملة ما يؤدي إلى اشتقاق الأفعال الرباعيّة دون الثلاثية من تصويتات بعينها هو أنَّ اشتقاق الرباعيّة يؤدي إلى اشتمال هذه الأفعال على صوامت التصويت كلِّها دون الاستغناء عن بعضها، على النحو الظاهر في اشتقات الأفعال: (قَرْقَسَ) و (طَرْطَبَ) و (دَهْدَعَ) في المبحث الآتي.

ويجدرُ التنبيه على أنَّ اللغة ربّما تميلُ إلى اشتقاق الفعل الرباعيِّ دون أن يكون هذا الميلُ عدولاً عن ثقلٍ ما، بل لعلَّ الدافع إلى ذلك هو أمن اللّبس، ومن ذلك اشتقاقُ الفعل الرباعي حَلْحَلَ بالناقةِ من زجرها بالتصويت (حَلْ حَلْ)(٢). فليس ثمة صعوبة في اشتقاق الثلاثيّ المضاعف (حلّ) من هذا التصويت؛ لأنّ مضاعفةَ عين هذا الفعل (اللام) لا ترتقي لصعوبة مضاعفة الأصوات الحنجريّة والحلقيّة، بيد أنَّ اشتقاقه من التصويت الذي سبق ثلاثياً (حلَّ) يؤدي إلى اللّبس بالفعل الذي يشتقُّ من غير التصويت، على نحو قولهم: حلَّ بالمكان.

٣- من تأصيلات المحدثين لبعض الأفعال المشتقة من التصويتات

درس بعضُ الباحثين المحدثين مسألة نشأة أفعال العربيّة وتطورها بمناهج لا تفرِّق - كثيراً - بين الأفعال المشتقة من التصويتات وعموم أفعال العربيّة، فجاء غيرُ قليلٍ من الخلط والاضطراب في تأصيل بعض الأفعال المشتقة من التصويتات،

(١) ابن دريد، جمهرة اللغة، (جه) ١/٩٣، ٩٤.

(٢) ابن منظور، لسان العرب (حلل) ١١/١٧٤.

ويمكن أن نمثّل لذلك من دراسة الباحثة ريم المعايطة الموسومة: (بنى الأفعال العربيّة في معاجم الأفعال دراسة صوتية صرفيّة).

لقد عرضت الباحثةُ إلى أفعال مختلفة مشتقة من التصويتات للحيوان، وكان منهج تأصيلها يقومُ على قطعها عن التصويتات المشتقة منها، ومن بعدُ تُدرس في ضوء وسائل نشأة الفعل الرباعيّ التي شاعت في الدرس اللغوي الحديث.

ونجتزئ من الأفعال المدروسة بالأفعال الثلاثة: قَرْقَس وَطرْطَبَ ودَهْدَعَ.

(أ) الفعل قْرقَس

تذهب الباحثةُ إلى أنَّ الفعل: قَرْقَسَ بالجَرْو ـ إذا دعاه ـ رباعيٌّ ناشىءٌ من الثلاثي (رَقَس) بتكرار عين الفعل قبل فائه، قياساً على نشأة الفعل الرباعي (دَهْدَم) بمعنى قَلَبَ من الثلاثي: (هَدَم) بمعنى أسقط، والمشترك المعنويُّ بين الرباعيِّ والثلاثيِّ أنَّ الإسقاط قد يرافقه القلب. وحين وجَدَتْ الباحثةُ أنَّ الفعلَ الرباعيَّ (قرقس) ليس له ثلاثي من نمط: (رقس) ذهبت إلى أن الفعل الثلاثي (ركَسَ) الشيء بمعنى: رَدَدْتَه ورَجَعْتَهُ هو الأصل للفعل (رقس)، وكل ما جرى فيه هو إبدال الكاف قافاً، زيادةً على أنَّ القرقسة بالجَرو فيها ترجيعٌ أيضاً[1].

وحقيقة نشأة الفعل الرباعيِّ: (قرقس) ليست كما ذكرت الباحثةُ وتأوَّلتْ، وإنّما يمكن بيان هذه النشأة تأسيساً على ما تذكره مصادرُ اللغة من تصويتات مختلفة للكلب. ففي هذه المصادر نجدُ أنَّ: قُسْ أوقِسْ وقُوسْ وقُوشْ من زجر الكلب، ويُشار ـ أحياناً ـ إلى زجر البقر بالتصويت: قِسْ. وفي هذه المصادر ـ أيضاً ـ أنَّ: قِرْقِسْ وقُرْقُوس من زجر الكلب[2].

وقد ذكرنا في موضوع إشباع الضمة القصيرة ونشوء الواو المديّة التصويتين: قُسْ

(١) المعايطة، بنى الأفعال العربية، ١٨١.

(٢) ابن سيده، المخصص، ٤ / ١٠٩، السرقسطي، الأفعال، (قرقس) ٢ / ١٣٢. ابن منظور، لسان العرب، (قسس) ٦ / ١٧٦.

وقوس، وبيّنا جواز إبدال السين شيناً في التصويتين قوس وقوشْ. وقد ذكر القدماءُ بعض الأفعال المشتقة من التصويتات التي سبقت على النحو: (قَسْقَسَ بالكلبِ وقَوْقَسَ، وقَرْقَسَ) وقَوْقَشَ وقَشْقَشَ[١].

وذكر ابن منظور الفعل الثلاثي (قَسَّ) والرباعيَّ: (قَسْقَسَ) بمعنى: ساقَ الإبل أو شدّة سوقها دون أن ينسب اشتقاقهما إلى التصويتات السابقة[٢]. وبناء على ذلك نرى أن التصويت: قُسْ هو الأصل الذي يشتق منه الفعل الثلاثي: قَسَّ بمضاعفة السين، ومن هذا التصويت ـ أيضاً ـ يشتق الفعل الرباعي: قسقس بتكرير صامتيه (القاف) و(السين)، وأما الفعل: قَوْقَس فيشتقُّ من التصويت: قوسْ من طريق تكرير القاف بعد الواو، وأمّا الفعل (قوقش) فيشتقّ من التصويت (قوش) الذي تُبدل شينه من السين بالطريقة نفسها التي يشتقُّ بها الفعل: قوقس. ولابدّ ـ هنا ـ من القولِ بأنَّ الفعلَ الرّباعيَّ (قَشْقَش) يقتضي أنْ يكون التصويت (قُسْ) قد أُبدلت سينه شيناً على النحو (قُشْ) وهو التصويت الذي نرجّحَ نشأةَ الفعل (قَشْقش) منه بتكرير صامتيه، وإنْ لم يذكرُ القدماءُ هذا التصويتَ. وأمّا الفعل (قَرْقَسَ) فنرى أنه مشتقٌّ من مجموع صوامت التصويتينِ: (قِرْ) و(قِسْ).

(ب) الفعل: طَرْطَبَ

اتكأت الباحثة في تأصيل نشأة هذا الفعل على السَّرقسطيِّ الذي ذكر معنى الطرطبة بقوله: "وطَرْطَب بالحُمُرِ: إذا دعاها... وطَرْطبَ بالضأنِ: دعا بها، وهو الصوت بالشفتين".

ولأنَّ السرقسطيّ ذكر أن معنى الطرطبة هو الدعاءُ والصَّوْتُ بالشفتين، ولم يذكر غير ذلك رأت الباحثة أن الفعل الرباعي (طَرْطَبَ) قد نشأ من الفعل الثلاثي

(١) الأندلسي، أبو حيان، ارتشاف الضرب، ٥ / ٢٣١٤.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، (قسس) ٦ / ١٧٤، ١٨٦.

(طرب) بتكرير فاء الفعل بعد عينه، ولتأكيد هذه النشأة ساقت معنى الفعل الثلاثي (طرب) وهو مدُّ الصّوتِ من معجم (لسان العرب)(١).

والصحيح أنَّ نشأة هذا الفعل لا علاقةَ لها بالفعل الثلاثي (طرب) على ما سيتضح بعد عَرْض آراء القدماء في الفعل: طَرْطَب.

وأما رأي اللغويين في هذا الفعل فيتّضح من عدِّهم الطرطبةَ صوتَ الحالب بالمعَز ليسكنها، وتكون بالشفتين أو هي دعاء الضأن(٢). وذهب ابن منظور إلى أنَّ الفعل (طَرْطَبَ) مشتقٌ من التصويت للغنم بـ: أَرْ أو إِرْ، ولم ينفِ أن تكون الطرطبة بالشفتين(٣).

وما ذكره ابن منظور فيه نَظَرٌ؛ لأنَّ ما يشتقُّ من هذا التصويت هو الفعل الرباعي المقلوب قلباً مكانياً: رَأْرَأَ تجنباً لمجيء الهمزة في أول الفعل وثالثه. كما سبق لنا توضيحه. ونرى أنَّ الفعل طَرْطَبَ قد اشتُقَّ ليصورَ تصويتاً للغنم أو الضأن يعتمد على حركات اللسان والشفتين، فالأصوات الثلاثة: (الطاء والراء والباء) هي عماد هذا التصويت كما يُلحظ، ونستطيع تمثيل هذا التصويت صوتياً بالهيئة: (trr، trr) أي: طرْرْ طرْرْ.

ومعاينة هذه الطرطبة في لهجات البادية الأردنية تؤكد أنَّها تبدأ بالتصاقِ مقدِّمة اللِّسان باللِّثَةِ والأسنان العليا، بحيث يمتنع مرور الهواء لارتفاع مؤخرة اللِّسان، وهي الهيئة التي يحدث بها صوت الطاء في العربيّة الفصيحة، وهذا ما يفسّر إقحام (الطاء) في التصويت المسمّى لدى القدماء: (الطرطبة) وتنتهي الطرطبةُ بصوتٍ يُسمحُ فيه للشفتين بالتذبذب وطرقِ إحداهما الأخرى، ولعلَّ ذلك ما يفسِّر إقحامهم للراء والباء في (الطرطبة).

(١) المعايطة، بنى الأفعال العربيّة، ١٨٠، ١٨١.

(٢) ينظر: السرقسطي، الأفعال، (طرطب) ٣/ ٢٨٤، ابن منظور، لسان العرب (طرب) ١/ ٥٥٧.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، (طرب) ١/ ٥٥٧.

وهذا النمط من الراء ليس الذي يحدث بناءً على طرق مقدِّمة اللسان اللِّثة طرقاتٍ متعدّدة في النطق الفصيح، بل هو نمط خاصٌ من الراء يُسمى: الراء الشفويّة التي تُنطق من طريق وضع الشفتين في حالة تذبذب إحداهما ضد الأخرى. ولم يسجل العلماءُ وجود هذا النوع من الراء كأصوات كلاميّة في أيِّ لغة من اللغات، ولكن قد يُسمع من حين لآخر من سائس الخيل عند تدليكه الحصان، أو يُسمع عند الإحساس بالبرد الشديد(١).

فإذا صحّ ما ذهبنا إليه فإنَّ هذا النمط من الراء هو الذي كان مستعملاً لدى القدماء في الطرطبة، وربما من غير المصادفة أن يرتبط بالطرطبة للغنم والمعَز كارتباطه بالتصويت الذي يستعمله سائسُ الخيل.

(ج) الفعل دَهْدَع

ترى الباحثةُ أنّ هذا الفعلَ الرباعيَّ ناشئٌ من الفعل الثلاثيِّ (دَهَعَ) بتكرير الدّال بعد الهاءِ عينِ الفعل(٢).

وقد سبق لنا بيانُ حقيقةِ نشأة هذا الفعل في الفعل الثلاثي المزيد بالتضعيف بما يغني عن إعادة القول في نشأته مرّةً ثانيةً، بيدَ أنَّ ما نريدُ قولَهُ ـ هنا ـ هو أنَّه لا يمكن تأصيلُ نشأة الأفعال المشتقة من التصويتات بمعزلٍ عن هذه التصويتات، والاتكاء على نشأة الأفعال الرباعيّة من الثلاثية كما فعلت الباحثةُ؛ لأنّنا نرى أنّ التصويتاتِ بمنزلةِ الجذور المعجميّة في اشتقاق الأفعال منها، ومنهج الباحثة في التأصيل الذي سبق وغيرهِ يفضي إلى وجود ما يمكن وسمه بالحلقةِ المفقودة في التطور اللُّغويِّ، فإنْ صحّ أنَّ الفعل (دَهْدَعَ) قد نشأ من الفعل (دَهَعَ) فكيف يمكنُ لنا أن نفسِّر نشأةَ كثير من الأفعال التي تدورُ في فلكٍ دلاليٍّ واحدٍ، من نحو الفعل (دَهّعَ) و (دَعْدَع) و (دادعَ)؟

(١) الشايب، فوزي، محاضرات في اللسانيات، ١٧٨، ١٧٩.

(٢) المعايطة، بنى الأفعال العربية، ١٨٠.

إن كان ثمة ما يمكنُ استخلاصُهُ من تناوُلِ الأفعال المشتقة من التصويت للحيوان فهو أنّه يجدرُ بنا ألاّ نقطعَ الصِّلةَ بين الأفعال والألفاظ المستعملة للتصويت، ففي مدِّ جسور الصِّلة بينهما ما يُمكّننا من فهم تطور الاشتقاق اللُّغويِّ وأصول نظريته في العربيّة، فعندما يُقال ـ مثلاً ـ إن معنى أهابَ الرجلُ بصاحبه بمعنى دعاه، وإنّ أصل ذلك في الإبل كما يذكر كثيرٌ من القدماء[١]. فإنّ ذلك مدعاة إلى رجْعِ النظر إلى المصدر الذي اشْتُقّ منه هذا الفعل لدعاء الإبل، وعند ذلك نجدُ أنّ معنى الفعل أهاب بالإبل هو دعاها بالتصويت المرويِّ (هابْ هابْ) ومثل ذلك في قولهم: أهاب الراعي بغنمه بمعنى صاح بها لتقفَ أو لترجعَ، وكذا الحالُ في إهابة الخيل أيضاً[٢].

ويلزمُ ـ عند ذلك ـ أنْ نراقبَ تطوُّرَ هذا التصويت أيضاً للوقوف على ما يمكنُ أنْ يُشتقَّ منه في مراحل التطُّور المختلفة، وعند ذلك لا نعدمُ مَنْ يقولُ مِنْ القدماء إنَّ التصويت (هَبْ) مستعملٌ في زجر الإبل والخيل والحمار[٣]. بيد أنَّهم لم يذكروا أيّ فعلٍ مشتقّ منه.

خلاصةُ البحث

تناول هذا البحثُ موضوعاً يتعلّق بالألفاظ اللُّغوية التي استعملها العربُ القدماء في تصويتهم للحيوان، وهو موضوع لم يُفرد له أيُّ مؤلّفٍ أو درس خاص به من لدنِ اللغويين القدماء والمحدثين، وما انتهينا إليه من هذا التناول مبثوث في ثنايا البحث، إلا أنَّ المنهجيّة العلميّة تقتضي الإشارة إلى أبرز ما وصلنا إليه في بحث هذه المسألة، ومن ذلك:

١- أنَّ التصويتات تؤلّف حقلاً دلاليّاً خاصّاً تتمثل فيه مستوياتٌ لغويّة

(١) ابن سيده، المخصص، ٣ / ٣٨٠.

(٢) ابن منظور، لسان العرب (هيب) ١ / ٧٩٠.

(٣) المصدر السابق (هب) ٧٧٨، ٧٨٠.

مختلفة: (صوتية وصرفيّة ونحويّة (تركيبيّة) ودلاليّة).

٢- أنَّ ألفاظ التصويتات قد تطوّرت كحال ألفاظ اللغة، بيد أنَّ تطوُّرَها كان من النمط المتشعب الذي يحتاج إلى جمع هذه الألفاظ من مصادرها المختلفة، ودرسها بناءً على تشابهها الصوتي والمعنويِّ، ورصدُ هذا التطور يثري اللغةَ بشواهدَ لغويّة صوتية وصرفيّة ودلاليّة.

٣- أنَّ منهج القدماء في تأصيل التصويتات وما يشتق منها من أفعال لا يتجاوز حدودَ المنهج الوصفي الذي يكتفي بالسرد والجمع دون تعليلٍ وتفسير، زيادةً على ما يُلمح من اضطراب لا يخفى في بعض تأصيلات هذه الألفاظ. وهو أمر يطالعُ في بعض الدراسات اللغويّة الحديثة التي تناولت بعض الأفعال المشتقة من التصويتات.

٤- استطاع البحث أنْ يفسر غيرَ قليل من المسائل اللغويّة في هذه التصويتات بوساطة ما يستعمل منها في لهجات البادية الأردنية؛ وبذلك تمَّ للبحث مدّ جسور الصّلة بين القديم والحديث.

٥- أشار البحث إلى التصحيف والتحريف الذي يطالع في بعض التصويتات المرويّة في مصادرها المختلفة.

المصادر والمراجع

١- الأخفش، أبو الحسن سعيد بن مسعدة، معاني القرآن، تحقيق: فائز فارس، حقوق الطبع للمؤلف دون ذكر دار النشر، ط٣، ١٩٨١م.

٢- الأزهري، تهذيب اللغة علق عليها: عمر سلامي وزميله، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٣- الأستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن، شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط، د ت.

٤- الأستراباذيّ، رضي الدين محمد بن الحسن، شرح كافية ابن الحاجب، تحقيق: أحمد السيد أحمد، المكتبة التوفيقيّة، القاهرة، د ط، د ت.

٥- الأشموني، أبو الحسن علي، منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق: عبد الحميد السيد، المكتبة الأزهريّة للتراث، القاهرة، د ط، د ت.

٦- الأصمعي، سعيد بن عبد الملك بن قُريب، كتاب الفرق، تحقيق: صبيح التميمي، دار أسامة، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

٧- الأندلسيّ أبو حيان ، محمد بن يوسف، ارتشاف الضرب في لسان العرب، تحقيق: رجب عثمان محمد، مراجعة: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.

٨- أنيس، إبراهيم، الأصوات اللغويّة، دار النهضة العربية، القاهرة، ط٣، ١٩٦١م.

٩- أنيس، إبراهيم، في اللهجات العربيّة، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، ط٨، ١٩٩٢م.

١٠- ابن الجزري، الحافظ أبو الخير، النشر في القراءات العشر، أشرف على تصحيحه ومراجعته، علي محمد الضباع، دار الفكر، بيروت، د ط، د ت.

١١- ابن جنّي، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، بغداد، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، ط٤، ١٩٩٠م.

١٢- ابن دُريد، أبو بكر محمد بن الحسن، جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكيّ، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

١٣- ابن سيده الأندلسي، أبو الحسن علي، المخصص، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

١٤- ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، طبعة جديدة منقّحة، ٢٠٠٠م.

١٥- ابن فارس، أبو الحسين أحمد، الصاحبي، تحقيق: السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، د ط، ١٩٧٧م.

١٦- ابن فارس، أبو الحسين أحمد، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، د ط، د ت.

١٧- ابن القطاع، أبو القاسم علي بن جعفر، الأفعال، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

١٨- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد، لسان العرب، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٩٩٤م.

١٩- ابن يعيش، موفق الدين يعيش بن علي، شرح المفصل، تحقيق: أحمد السيد أحمد، المكتبة التوفيقيّة، القاهرة، د ط، د ت.

٢٠- بشر، كمال، علم اللغة العام الأصوات، دار المعارف، القاهرة، ط٧، ١٩٨٠م.

٢١- حسان، تمام، اللغة العربيّة معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، د ط، ١٩٩٤م.

٢٢- الحمد، غانم قدوري، المدخل إلى علم أصوات العربية، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد، ط١، ٢٠٠٢م.

٢٣- الخليل، عبد القادر مرعي، التشكيل الصوتي في اللغة العربيّة بحوث ودراسات، مطبعة البهجة، عمان، ط١، ٢٠٠٢م.

٢٤- ذو الرّمة، ديوان ذي الرّمة، قدَّم له وشرحه: أحمد حسن بَسَج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

٢٥- الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس، دار الفكر، بيروت.

٢٦- السّرقسطي، أبو عثمان سعيد بن محمد، الأفعال، تحقيق: حسين محمد شرف ومحمد مهدي علام، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٢م.

٢٧- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢م.

٢٨- السيوطيُّ، جلال الدين عبد الرحمن، الأشباه والنظائر، وضع حواشيه: غرير الشيخ، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٢٩- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرح وتعليق: محمد جاد المولى بك وزملائه، المكتبة العصريّة، بيروت، دط، ١٩٨٧م.

٣٠- شاهين، عبد الصبور، المنهج الصوتي للبنية العربيّة، رؤية جديدة في الصرف العربي، مطبعة جامعة القاهرة، الكتاب الجامعي، القاهرة، ط١، ١٩٧٧م.

٣١- الشايب، فوزي، أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، عالم الكتب الحديث، إربد، عمان، ط١، ٢٠٠٤م.

٣٢- الشايب، فوزي، محاضرات في اللسانيات، منشورات وزارة الثقافة، عمان، ط١، ١٩٩٩م.

٣٣- الصالح، صبحي، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٧٨م.

٣٤- الضامن، حاتم صالح، علم اللغة، مطابع وزارة التعليم العالي العراقية، جامعة بغداد، بيت الحكمة، د ط، ١٩٨٩م.

٣٥- عبابنة، يحيى، دراسات في فقه اللغة والفنولوجيا العربية، دار الشروق، عمان، ط١، ٢٠٠٠م.

٣٦- عبد التواب، رمضان، بحوث ومقالات في اللغة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٩٥م.

٣٧- عبد التواب، رمضان، التطور اللغويّ مظاهره وعلله وقوانينه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٩٧م. المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللُّغوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٩٧م.

٣٨- عبد التواب، رمضان، فصول في فقه العربيّة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٦، ١٩٩٩م.

٣٩- الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد، معاني القرآن، تحقيق: محمد علي النجار، دار السرور، د.ط، د ت.

٤٠- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، تحقيق: إبراهيم السامرائي ومهدي المخزومي، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، دار الرشيد، بغداد، ط١، ١٩٨١م.

٤١- القسطلاني، شهاب الدين، لطائف الإشارات لفنون القراءات، تحقيق: عامر السّيد، وعبد الصبور شاهين، لجنة إحياء التراث الإسلامي في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، د.ط، ١٩٧٢م.

٤٢- قطرب، أبو عليّ محمد بن المستنير، الفرق في اللغة، تحقيق: خليل إبراهيم العطية، مكتبة الثقافة الدينيّة، القاهرة، ط١، د ت.

٤٣- المطلبي، غالب فاضل، في الأصوات اللغوية دراسة في أصوات المد العربية، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية، ط١، ١٩٨٤م.

٤٤- المعايطة، ريم، بنى الأفعال العربيّة في معاجم الأفعال دارسة صوتية صرفيّة، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠٠٨م.

الرموز الصوتية المستعملة في البحث

الهمزة	ʾ
الخاء	h̲
الحاء	ḥ
الراء	r
الطاء	ṭ
العين	ʿ
النون	n
الهاء	h
الواو شبه الحركة	w
الياء شبه الحركة	y
الفتحة القصيرة	a
الفتحة الطويلة (ألف المد الطويلة)	ā
الضمة القصيرة	u
الضمة الطويلة (الواو المدّية الطويلة)	ū
الكسرة القصيرة	i
الكسرة الطويلة (الياء المديّة الطويلة)	ī
رمز الإمالة اليائية	ē
رمز الإمالة الواويّة	ō
همزة الوصل	(>)
يتحولّ إلى	←